نسبه وأخباره

فصل فى نسبه .

« « بيته .

« « مولده ووفاته وحليته .

« « نشأته وطلبه العلم ورحلته .

« « تلاميذه .

« « مبلغ علمه وذكائه .

« « مؤلفاته .

« « ثروته وزهده .

« « بقية أخباره .

obeikandl.com

obeikandl.com

فصل فى نسبه

هو أبو العَلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن داود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن الحرث بن ربيعة بن أنور بن أسحم بن أرقم بن النُّعْمان بن عدى بن غَطَفَان بن عمرو بن بَرِيح بن خُزَيْمة بن تَيْم الله بن أسد بن وبرة بن تَغْلِب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة التَّنُوخىّ المَعَرِّىّ. هكذا ساق نسبه ابن خلكان، وهو أصح ما وجدناه بالمعارضة على ما فى كتب الأنساب؛ فإن فيما ذكره ياقوت فى « إرشاد الأريب » إسقاطاً لبعض الأسماء، واضطراباً فى ترتيب بعضها، فاعتمدنا على رواية ابن خلكان بعد تصحيح ما حُرِّف منها، فإن خُزَيْمة بن تَيْم الله جاء فى النسخة المطبوعة ببولاق: جَذِيمة بالجيم والذال المعجمة، وما نُصَّ عليه فى كتب اللغة والأنساب خُزَيْمة بالخاء والزاى مُصغَّراً. وتيْم الله بن أَسَد هكذا فى جميع ما وقفنا عليه من الكتب، وجاء به أبو العلاء فى سقط الزند تيم اللّات، فى قوله:

سألته قبل يوم النير مَبْعَثَهُ إليك ديوان تيم اللّاتِ ما ليتَا

وقد يكون هذا تحريفاً فى النسخة، إلا أن مَنْ خَبَر شعر أبى العلاء، ومذهبه فى تكلفه الصناعة والتجنيس، رجح أنه ما أتى بقوله مَا ليتَ، أى ما نُقص، بعد قوله اللات، إلا إرادة للتجنيس. والله أعلم. وقد يذهب الظن إلى أن تيم اللات هذا ربما كان غير تيم الله المذكور مقدماً، وهو مردود بما ذكره الشارح فى سياقِهِ نسبه عند شرح البيت. على أن فيما ذكره ابن خلكان ما لا يسكت عنه أيضاً، وما نقلناه عنه هو ما وجدناه فى النسخة المطبوعة ببولاق، والنسخة المطبوعة بباريس. ونقل ابن الوردى فى تاريخه عبارة ابن خلكان، فأسقط

أحمد بن سليمان من سلسلة النسب ، ويوافقه ما فى «الكوكب الثاقب» لعبد القادر ابن عبد الرحمن السَّلَوىّ ، إلّاأنه أسقط محمد بن سليمان بدل أحمد . وعلى كل حال فالظاهر أن ما ورد فى ابن خلكان فيه زيادة اسمين ربما سبق بهما قلم الناسخ .

وجدّه الأعلى قُضَاعَة بن مالك أبو حَىّ من اليمن ينتهى نسبه إلى قَحْطَان ، هذا هو المشهور . وزعم نُسَّاب مُضَر أنه قضاعة بن مَعَدّ بن عدنان ، وأن مالِكا زوج أمّه ، والنسب إلى زوج الأم عادة معروفة عند العرب ، ولعلماء الأنساب فى ذلك اختلاف كثير ، ولهذا قال محمد بن سلام البصرى النَّسَّابَة لمّا سئل : أنِزَار أكثر أم اليَمَن ؟ فقال : إن تمعددت قضاعة فنزار أكثر ، وإن تيمّنت فاليَمَن . وعلى القول الأول قول بعضهم :

قُضَاعَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ حِمْيَرِ ... النَّسَبُ المَعْرُوفُ غَيْرُ المُنْكَرِ

وعلى القول الثانى قول الكُمَيْتِ الأسَدِىّ يخاطب قُضاعة :

فإنَّكِ والتَّحَوُّلَ عن مَعَدٍّ ... كَحَالِيَةٍ تَزَيَّنُ بالْعُطُولِ
تُغَايِظُ بالتَّعَطُّلِ جارَتَيْهَا ... وبالْأَحْمَاءِ تَبْدَأُ والْحَلِيلِ
فمَهْلا يا قُضَاعَةُ لا تَكُونِى ... كَقِدْحٍ خَرَّ بَيْنَ يَدَىْ مُجِيلِ
وَمَا مَنْ تَهْتِفِينَ بِهِ لِنَصْرٍ ... بِأَقْرَبَ جَابَةً لَكِ من هَدِيلِ

وسُمّى قُضَاعة لانقضاعه عن قومه مع أمه ، أى انقطاعه عنهم ؛ أو من قضعه ، أى قهره . وقيل بل هو اسم منقول ، وأصل القُضاعة الفَهْد .

والتَّنُوخِىّ نسبة إلى تَنُوخ كصبور ، وتشديد النون خطأ ؛ وهم قبيلة من اليمن من قضاعة ، سُمُّوا بذلك لأنهم اجتمعوا وتحالفوا ، وتنَخوا بمكان فى الشام أى أقاموا فيه ، ومن الناس من يطلق تَنُوخَ على الضَّجَاعِمَةِ ودَوْس الذين تنخوا بالبحرين ، والاختلاف فى ذلك كثير أيضاً ، ونقل عن أبى عُبَيْد أنهم تنخوا

على مالك بن زُهَير بن عمرو بن فَهْم بن تَيْم الله بن أسد ، وعلى مالك بن فَهْم عم مالك بن زهير . وذكر الهمدانى أن المَعرّة من بلاد الشام هى صليبة تنوخ ، بمعنى أن بها جمعهم المستكثر . وفى « إرشاد الأريب » لياقوت أن تَيْم الله بن أَسَد هو مجتمع تنوخ من أهل مَعرّة النعمان . وقال أبو يعقوب النحوى فى شرح « سقط الزند » أن تَيْم الله هو مجتمع تنوخ فى النسب ، ولم يخص أهل المعرة . ويوافقه ما ذكره ياقوت فى معجم البلدان ، إلا أن أبا يعقوب سماه تَيْم اللات كما قدمنا . وكان شعار تنوخ فى حروبهم : (وَاصِلْ ، وَاصِلْ) ، وإليه أشار أبو العلاء فى لزومياته بقوله :

فِرَّ من هـذه البريّة فى الأر ض فما غير شرّها لك حاصلْ
فشِعَارِى قاطعْ وكان شعاراً لتَنُوخٍ فى سالف الدهر واصِلْ

والشعار : العلامة فى الحرب ، وفى الحديث أن شعار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى الغزو : (يا مَنْصُورُ أمِتْ أمِتْ) وهو تَفَاؤُلٌ بالنصر بعد الإماتة . واسْتَشْعَرَ القومُ إذا تَدَاعَوْا بالشِّعَار فى الحرب .

والمَعَرِّىّ نسبة إلى معرة النُّعْمان ، وهى بلدة بالشام من أعمال حمص بين حلب وحماة ، وليست منسوبة للنعمان بن المنذر كما توهمه بعضهم ، بل نُسِبَت فيما ذكروا للنعمان بن بشير الأنصارىّ ، لأن وَلَدًا له مات وهو مجتاز بها ، فدفنه فيها وأقام أياماً حزيناً ، فنسبت إليه لذلك . قال ياقوت فى معجم البلدان : وهذا فى رأيى سبب ضعيف لا تسمى بمثله مدينة ، والذى أظنه أنها مسماة بالنعمان الملقب بالساطع . قلت : وهو النعمان بن عدى ، أحد أجداد المعرى المذكورين فى نسبه . والذى ذكره ياقوت مقبول ، فإن تسمية بلدة باسم أحد قطّانها المشهورين فيها أقرب من تسميتها بأحد المجتازين بها . وذهب الشريشى فى شرح المقامات إلى

أنها أضيفت لجبل مطل عليها اسمه النعمان ، ولم يذكر ياقوت هذا الجبل .

ومن شعر أبى العلاء فيمن عيّره باسم بلده :

يعيرنا لفظ المعرّة أنهـــا ... من العرّ قوم فى العُلَا غُرَبَاء

وهل لَحِق التثريبُ سكّانَ يَثْرِب ... من الناس ، لا ، بل فى الرجال غَبَاء

وذُو نَجَبٍ إن كان ما قيل صادقاً ... فما فيـــه إلّا مَعْشَرٌ نُجَبَاء

أى إن كان اسم البلد له تأثير على ساكنيه ، على ما زعم هؤلاء الزاعمون ، فيلزم منه أن التثريب لاحِقٌ لسكان يثرب ، وهى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام . ويلزم منه أيضاً أن يكون سكان ذى نَجَبٍ كلهم نُجَباء ، مع أن فيهم النجيب وغير النجيب كسائر سكان البلاد .

ومن شعره فى اسمه :

وأحمد سمّانى كبيرى وقلّما ... فعلتُ سوى ما أستحق به الذَّمّا

وقال أيضاً :

رُوَيْدَكَ لو كَشَّفْتَ ما أنا مضمِرٌ ... من الأمر ما سمّيتنى أبداً باسمى

أُطهِّرُ جسمى شاتياً ومُقَيِّظاً ... وقلبِىَ أولى بالطهارة من جسمى

وقال فى كُنْيَتِه :

عرفتُكِ جيداً يا أُمَّ دَفْرٍ ... وما إن زلتِ ظالمةً فزولى

دُعيتُ أبا العَلاء وذاك مَيْنٌ ... ولكن الصحيح أبو النزول

يقول ذلك جرياً على عادته فى الخمول والتواضع .

وقد خلط بعض العصريين بين أبى العلاء المعرى ، وأبى العلاء صاعد اللغوى ، لاتفاقهما فى الكنية واشتهار كليهما باللغة ، فنسب المعرّىّ كتاباً اسمه الفصوص فى قصة ساقها ، وإنما هو لصاعد ، وسيأتى تفصيل ذلك فى فصل مؤلفاته .

فصل فى مقارنة بعض معانيه بمعانى غيره

قال أبو العلاء :

جهلٌ بمثلك أن يزور بلادنا ... يختال بين أساور وخلاخل

أو ما رأيت الليل يلقى شهبه ... حتى يجاوزها بحلة عاطل

وقال الوزير ابن زيدون :

قعيدك أنّى زرت نورك واضح ... وعطرك نمّام وحَليك مرجف

هبيك اعترت[1] الحى واشيك هاجع ... وفرعك غربيب وليلك أغضف[2]

فكيف اعتسفت الهول خطوك مدمج ... وردفك رجراج وخصرك مُخْطَفُ[3]

أقول : مدار المعنى فى الشعرين على التعجب من مخاطرة هذه المعشوقة فى زيارة صاحبها . فتناوله كلا الشاعرين ، وتلاعب به ، فأبرزه فى الصورة التى شاء له اقتداره إبرازه فيها ؛ وقد أجاد كل منهما فيما حاوله ، وتساويا فى الإحسان ، فلا أرى للترجيح مدخلا بينهما . ويلوح لى أن كليهما اعتمد فى توليد معناه على قول أبى الطيب :

قلق المليحة وهى مسك هتكها ... ومسيرها بالليل وهى ذُكاء

ولا يظهر ما قلته إلا بزيادة التدقيق ، وإطالة التأمل .

* * *

وقال أبو العلاء :

آلَى أميرك لا يسرى الخيال لنا ... إذا هجمنا فقد أسرى وما عَلِمَا

وكم تَمَنَّتْ رجال فيك مُغْضَبَةٌ ... أن يبصروه فلم يظهر لهم سَقَمَا

---

(١) المتر : الزائر .

(٢) الأغضف : المظلم .

(٣) المخطف : المنطوى .

« أبوه عبد الله بن سليمان » ولى القضاء بعد أخيه محمد بن سليمان ، وتوفى بحمص سنة ٣٧٧ هـ ومن شعره فى رثاء والده :

إن كان أصبح من أهواه مُطَّرَحاً ببـاب حمص فما حزنى بمُطَّرَحِ
لو بان أيسر ما أخفيه من جزع لمـات أكثر أعدائى من الفرح

ورثى أبو العلاء والده بقصيدة نونية أولها :

نقمت الرضا حتى على ضاحك المُزْنِ فما جادنى إلاّ عبوس من الدَّجْن

وسنورد مختارها عند الكلام على منظومه .

« أخوه أبو المجد محمد بن عبد الله بن سليمان » كان أسَنَّ من أبى العلاء ، ومن شعره فى الزهد :

كرم المهيمن منتهى أملى لا نيّتى أجـر ولا عمـلى
يا مُفْضِـلاً جلّت فواضـله عن بغيتى حتى انتهى أجلى
كم قد أفضتَ علىّ من نِعَمٍ كم قد سترت علىّ من زلل
إن لم يكن لى ما ألوذ به يوم الحساب فإن عفوك لى

« أخوه أبو الهيثم عبد الواحد بن عبد الله بن سليمان » كان شاعراً كأبيه وأخويه أبى المجد وأبى العلاء ، ومن شعره :

قالوا نراه سَلَا لأنّ جفونه ضَنَّتْ عشية بَيْنِنَا بدموعها
ومن العجائب أن تفيض مدامع نار الغرام تشب فى ينبوعها

وله فى الشمعة :

وذات لون كلونى فى تغيّره وأدمع كدموعى فى تحدّرها
سهرت ليلى وباتت لى مسهّرة كأن ناظرها فى قلب مسهرها

قلت : ومهما قيل فى الشمعة ، فليس لقصيدة القاضى ناصح الدين الأرّجانى ضريب فى هذا الباب ، فقد بَذَّ بها من تقدّمه وأعيا من بعده ، إذ يقول :

نَمَّتْ بأسرار ليل كاد يُخْفيها ... وأطلعت قلبها للناس مِنْ فيها
سفيهة لم يزل طول اللسان لها ... فى الحىّ يَجْنِى عليها ضَرْبَ هاديها
غريقة فى دموع وهى تحرقها ... أنفاسُها بدوام من تلظّيها
تَنَفَّست نَفَسَ المهجورة ادّكرت ... عهدَ الخَليطِ فباتَ الوجد يُبْكيها
يُخشى عليها الرَّدَى مهما أَلَمَّ بها ... نسيمُ ريحٍ إذا وافى يُحَيِّيها
كأنّها غُرّةٌ قد سال شارخها ... فى وجه دَهْماءَ يزْهاها تجلّيها
أو ضرة خلقت للشمس حاسدة ... فكلما حُجبت قامت تحاكيها
لها غرائب تبدو من محاسنها ... إذا تفكرتَ يوماً فى معانيها
فالوجنة الورد إلّا فى تناولها ... والقامة الغصن إلا فى تثنّيها
صُفْرٌ غلائلها حُمْرٌ عمائمها ... سود ذوائبها بيض لياليها
تحيى الليالِىَ نوراً وهى تقتلها ... بئس الجزاء لعَمْرُ الله تجزيها

ولولا خوف الإطالة لذكرتها بتمامها لغرابتها .

وأتى بعد أبى العلاء جماعة ذكر منهم ياقوت ثمانية أسماء ، وأضرب عن ذكر غيرهم اختصاراً ، وغالبهم تولوا القضاء بالمعرة ، وكفرطاب ، وحماة . ومنهم من تولى ديوان الإنشاء .

وإنما تركت ذكرهم لما قدمت من تحريف أسمائهم فى النسخة .

فصل فى مولده ووفاته وحليته

ولد يوم الجمعة عند مغيب الشمس لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ٣٦٣ . وعمى بالجدرى أول سنة ٣٦٧ . غشى يمنى عينيه بياض ، وذهبت اليسرى حماة . وكان يقول : لا أعرف من الألوان إلا الأحمر ، لأنهم ألبسونى حين جدرت ثوباً معصفراً ؛ لا أعقل غير ذلك . وقال فى إحدى رسائله إلى داعى الدعاة : (وقد علم الله أن سمعى ثقيل ، وبصرى عن الإبصار كليل ، قضىَ علىَّ وأنا ابن أربع ، لا أفرق بين البازل[1] والرَّبَع[2]) فلا وجه إذاً لمن زعم أنه ولد أكمه .»

وحكى السِّلَفى عن أبى محمد الإيادى أنه دخل مع عمه على أبى العلاء يزوره ، فرآه قاعداً على سجادة لِبْدٍ وهو شيخ . قال : فدعانى ومسح على رأسى ، وكنت صبيا ، وكأنى أنظر إليه الساعة وإلى عينيه إحداهما بارزة والأخرى غائرة جدا ، وهو مجدر الوجه ، نحيف الجسم .

ونقل الثعالبى عن المصيصى الشاعر ، قال : رأيت بمَعَرة النعمان عجباً من العجب ، رأيت أعمى شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد ، ويدخل فى كل فن من الجد والهزل ، يكنى أبا العلاء ، وسمعته يقول : أنا أحمد الله على العمى ، كما يحمده غيرى على البصر . انتهى .

وقال الشيخ عبد الغنى النابلسى فى رحلته الكبرى المسماة بالحقيقة والمجاز ،

---

(١) البازل من الجمال الذى بلغ تسع سنين ، وليس بعده سن تسمى .

(٢) والربع كصرد الفصيل ينتج فى الربيع وهو أول النتاج ، فإذا نتج فى آخر النتاج فهو هبع ، ومراد أبى العلاء : لا أفرق بين الكبير والصغير .

ى رحلة الشام ومصر والحجاز ، عند كلامه على القدس وما فيها : « ودخلنا إلى لمدرسة المسماة بالفخرية ، وهى فى غاية من الحسن والإتقان ، وكمال البهاء وجمال لبنيان ، وفيها جملة من الكتب ، ورأينا فيها ديوان أبى العلاء المعرىّ وشرحه ، ورأينا هناك مكتوباً له هذين البيتين ، وهما قوله :

قالوا العمى منظر قبيح ... قلت بفقدى لكم يهون
والله ما فى الأنام شىء ... تأسى على فقده العيون

ويناسبه قوله أيضاً :

أبا العلاء يا ابن سليمانا ... إن العمى أولاك إحسانا
لو أبصرت عيناك هذا الورى ... ما أبصرت عيناك إنسانا »

انتهى كلام الشيخ . والبيتان الأولان اختلفوا فى قائلهما ، فنسبهما الصفدى فى شرح لامية العجم ج ٢ ص ٢٨٤ لأبى العلاء كما ذكر الشيخ ، ولكن روايته (ما فى الوجود) بدل (ما فى الأنام) .

ونسبهما الشريشى فى شرح المقامات لبشار بن برد ، وروايته (ما فى البلاد) ، ونسبهما الوطواط (فى الغرر والعرر ص ١٦١) لأبى العيناء ، وروايته (والله ما فى الأنام حر) والله أعلم .

والبيتان الآخران لم أجدهما فى شعر أبى العلاء ، ولعلهما من شعره المفقود .

فإن قيل : كيف كان يحمد الله على العمى ، وهو القائل فى عكسه يتمنى الإبصار :

فليت الليالى ساعدتنى بناظر ... يراك ومن لى بالضحى فى الأصائل
فلو أن عينى متّعتها بنظرة ... إليك الأمانى ما حَلمتُ بغائل

قلنا : ليس هذا من التناقض فى شىء ، ولكل مقام مقال ؛ لأنه أبان فى الأول عن مذهبه ورأيه فى الوجود ، وجرى فى الثانى على طريقة الشعراء فى مدائحهم ؛

إذ كان المقام يقتضيه . ومن هذا تعلم فرق ما بين شعريه فى سقط الزند واللزوميات ، لاختلاف المقامين وتباين الوجهتين . وإن صحت نسبة البيتين السابقين لأبى العيناء كما ذكر الوطواط ، فقد جرى على مثل هذا أيضاً فى قوله للمتوكل وقد سأله عن أصعب ما مر عليه فى فقد بصره ، فقال له : فقدى لرؤيتك يا أمير المؤمنين .

ومن قول أبى العلاء فى عماه ، وهو مما رواه له الصفدى :

سواد العين زار سواد قلبى ليتفقا على فهم الأمور

يشير بذلك إلى أن العميان عُوِّضوا عن البصر الذكاء وسرعة الحفظ ، وقريب منه ما ينسب لسيدنا عبد الله بن عباس ، وكان أصيب فى بصره فى آخر عمره :

إن يأخذ الله من عينىّ نورهما ففى فؤادى وقلبى منهما نور

قلبى ذكى وعقلى غير ذى دخل وفى فمى صارم بالقول مشهور

وغاية الغايات فى هذا الباب قول بشار بن برد فيمن عيَّره بالعمى ، وإن كان من غير هذا المعنى :

وعيرنى الأعداء والعيب فيهم وليس بعار أن يقال ضرير

إذا أبصر المرء المروءة والتقى فإن عمى العينين ليس يضير

رأيت العمى أجراً وذخراً وعصمة وإنى إلى تلك الثلاث فقير

ومن طرائف أبى العلاء أنه لما فرغ من تصنيف كتابه اللامع العزيزى فى شرح ديوان المتنبى ، وقرئ عليه ، أخذ الجماعة فى وصفه ، فقال : كأنما نظر المتنبى إلى بلحظ الغيب حيث يقول :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى واسمعت كلماتى من به صمم

وكان أبو حزم مكّى بن ريان المقرى الضرير الملقب بصائن الدين يتعصب لأبى العلاء ، ويطرب إذا قرئ عليه شعره للجامع بينهما من العمى والأدب ،

فسلك مسلكه فى النظم . كذا ذكر ابن خلكان نقلا عن ابن المستوفى .

وتوفى رحمه الله يوم الجمعة ، ثالثَ ، وقيل ثانِىَ ، وقيل ثالثَ عشرَ ربيع الأول سنة ٤٤٩ بالمعرة ، فى خلافة القائم العباسى ، وله من العمر نحو ست وثمانين سنة ، ومرض ثلاثة أيام ، ولم يكن عنده غير بنى عمه ، فقال لهم فى اليوم الثالث : اكتبوا عنى ، فتناولوا الدَّوِىَّ والأقلام ، فأملى عليهم غير الصواب ، فقال لهم القاضى أبو محمد عبد الله التنوخى : أحسن الله عزاءكم فى الشيخ فإنه ميت . فمات من غده ، ودفن فى ساحة من دور أهله . قال القفطى : أتيت قبره سنة خمسين وستمائة ، فإذا هو فى ساحة من دور أهله وعليه باب ، فدخلت فإذا القبر لا احتفال به ، ورأيت عليه خُبازى يابسة ، والموضع على غاية ما يكون من الشعث والإهمال . وقال الذهبى وقد رأيت قبره بعد مائة سنة من رؤية القفطى ، فرأيت نحواً مما حكى . انتهى ويقال إنه أوصى أن يكتب عليه

هـــذا جناه ابى علىّ وما جنيت على أحدْ

ونقل الصفدى عن خط علاء الدين الوداعى قال : زرت قبره بالمعرة رحمه الله تعالى فى ربيع الأول سنة تسع وسبعين وستمائة ، ولم أر عليه شيئاً من ذلك ، وقد دثر ولصق بالأرض ، وعملت هذين البيتين :

قد زرت قبر أبى العلاء المرتضى لما أتيت معرة النعمان

وسألت من غفر الخطايا أنه يهدى إليه رسالة الغفران

قلت : وقبره معروف إلى اليوم أى سنة ١٣٢٧ بالمعرة ، ولأهلها اعتقاد كبير فيه ، ويزعمون أن الماء إذا بيت فى قارورة عند قبره ، وشربه فى الغد صبى به لجلجة فى لسانه ، أو بلادة فى ذهنه ، زال ذلك عنه ببركة أبى العلاء .

ونقل ياقوت فى « إرشاد الأريب » عن ابن الهبارية ، أن السبب فى وفاة

أبى العلاء مكاتبات جرت بينه و بين أبى نصر بن أبى عمران داعى الدّعاة بمصر ؛ دعت إلى الأمر بإحضاره إلى حلب ، وَوَعْده على الإسلام خيراً من بيت المال ؛ فلما علم أنه يحمل للقتل أو الإسلام سَمّ نفسه فمات . قال ياقوت : وقد ظفرت بتلك الرسائل ، فلم أجد بها ما يدل على ما ذهب إليه ابن الهبارية . انتهى . وأقول : هذه الرسائل هى التى لخصها ياقوت فى كتابه المذكور ، وقد ظفرت بها أنا أيضاً ، وهى عندى تامة فى نسخة مخطوطة ، وليس فيها شىء من ذلك . و بعد فأى إسلام كان يريده منه داعى الدعاة ، وهو رئيس الباطنية فى الدولة الفاطمية ، والداعى إلى مذهبهم ، ونحلة القوم معروفة لا تحتاج لبيان . ومن راجع دعواتهم فى خطط المقريزى علم كيف كانوا يأخذون الداخل فى مذهبهم بتشكيكه فى دينه أولاً ، ثم الخروج به رويداً رويداً من الإسلام ، حتى ينتهوا به إلى الإلحاد . فهل كان ما عليه هؤلاء القوم هو الإسلام فى نظر ابن الهبارية حتى يتبجح بهذه الدعوى ؟ !

وكان رحمه الله قصير القامة ، نحيف الجسم ضعيفه ، مشوه الوجه بآثار الجدرى ، ومُنِى فى آخر عمره بالإقعاد ، ولما مات ختم عند قبره فى أسبوع واحد مائة ختمة ، وفى رواية مائتان ، واجتمع عليه خلق كثير ، وأنشد أربعة وثمانون شاعراً مراثيهم فيه . منها قصيدة طويلة لتلاميذه على بن هام ، يقول فيها :

إن كنت لم ترق الدماء زهادة ... فلقد أرقت اليوم من جفنى دما

سيرت ذكرك فى البلاد كأنه ... مسك تضمخ منه سمعا أو فما

وترى الحجيج إذا أداروا ليلة ... ذكراك أوجب فدية من أحرما

قال ياقوت : كأنه يقول إن ذكرك طِيبٌ والطيب لا يحل للمُحرم ، فتجب عليه فدية . ورثاه أبو الرضى عبد الرحمن بن نوت المعرى بقصيدة نذكر منها ما وقفنا عليه فى « الكوكب الثاقب » لعبد القادر السَّلَوىّ ، وهو :

سمر الرماح وبيض الهند تشتور ... فى أخذ ثأرك والأقدار تعتذر
والدهر فاقد أهل العلم قاطبة ... كأنهم بك فى ذا القبر قد قبروا
فهل تُرَى بك دار العلم عالمة ... أن قد تزعزع فيها الركن والحجر
والعلم بعدك علم فات منصله ... والفهم بعدك قوس ما له وتر

ورثاه الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أبى حصينة المعرى بقوله :

العلم بعد أبى العلاء مضيع ... والأرض خالية الجوانب بلقع
أودى وقد ملأ البلاد غرائبا ... تسرى كما تسرى النجوم الطُّلَّع
ما كنت أعلم وهو يودع فى الثرى ... أن الثرى فيه الكواكب تودع
جبل ظننت وقد تزعزع ركنه ... أن الجبال الراسيات تزعزع
وعجبت أن تسع المعرة قبره ... ويضيق بطن الأرض عنه الأوسع
لو فاضت المهجات يوم وفاته ... ما استكثرت فيه فكيف الأدمع
تتصرم الدنيا وتأتى بعده ... أمم وأنت بمثله لا تسمع
لا تجمع المال العتيد وجد به ... من قبل تركك كل شىء تجمع
وإن استطعت فسر بسيرة أحمد ... تأمن خديعة من يغر ويخدع
رفض الحياة ومات قبل مماته ... متطوعا بأبر ما يتطوع
عين تسهد للعفاف وللتقى ... أبداً وقلب للمهيمن يخشع
شيم تجمله فهن بلحده ... تاج ولكن بالثناء يُرصع
جادت ثراك أبا العلاء غمامة ... كندى يديك ومزنة لا تقلع
ما ضيع الباكى عليك دموعه ... إن الدموع على سواك تضيع
قصدتك طلاب العلوم ولا أرى ... للعلم بابا بعد بابك يقرع
مات النُّهى وتعطلت أسبابه ... وقضى التأدب والمكارم أجمع

فصل فى نشأته وطلبه العلم ورحلته

نشا بالمعرة ، وأخذ النحو واللغة عن أبيه ، وعن محمد بن عبد الله بن سعد النحوى بحلب ، وحدث عن أبيه وجده . ثم رحل إلى بغداد ، فسمع من عبد السلام بن الحسين البصرى هكذا ذكر السيوطى فى بغية الوعاة ، قال : وقد أسندنا حديثه فى الطبقات الكبرى ، وله ذكر فى جمع الجوامع . وذكر غيره أن أبا العلاء لما قدم بغداد ، قصد أبا الحسن على بن عيسى الربعى ليأخذ عنه ، فلما أراد الدخول عليه ، قال الربعى : ليدخل الإصطبل ؛ فخرج مغضباً ولم يعد إليه . والإصطبل بلغة أهل الشام الأعمى . قلت : وهى لفظة معربة ، ذكرها الخفاجي فى شفاء الغليل ، قال : ولذا قال ابن عباد : جرّوا الإصطبل فى قصته مع المعرى . ولعل الخفاجى أراد المرتضى ، ووهم فذكر ابن عباد . وستأتى القصة .

وذكر أبو الفداء أنه دخل بغداد واستفاد من علمائها ، ولم يُتَلْمِذْ لأحد أصلا ، وهو يخالف ما ذكره السيوطى وابن خلكان وغيرهما . وكان قد رحل أولا إلى طرَابُلُسَ ، وبها خزائن كتب موقوفة ؛ فأخذ منها ما أخذ من العلم . ثم رحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ فأقام بها سنة وسبعة أشهر ، ثم رجع إلى المعرة وأقام بها إلى وفاته وقول ابن خلكان إنه دخل بغداد سنة ٣٩٨ ، ودخلها ثانيا سنة ٣٩٩ . وأقام بها سنة وسبعة أشهر ، لا يستقيم مع ما سيرد عليك فى فصل مؤلفاته ، من تصريحه عن نفسه أن رجوعه إلى المعرة ولزومه منزله كان سنة ٤٠٠ .

وقبل قدومه إلى المعرة بمدة يسيرة ماتت أمه ، وأصيب فى مال له ، فرثاها بقصيدة ميمية طويلة ، وأخرى بائية ، وكتب إلى بغداد يخاطب صديقه وتلميذه

القاضى أبا القاسم على بن المحسّن التنوخى بقصيدة ضمنها أغراضاً يقول فيها معتذراً عن مفارقته العراق :

أثارنى عنكمُ أمران والدة ... لم ألقها وبراء عاد مسفوتا[١]
أحياهما الله عصرَ البَيْنِ ثم قضى ... قبل الإياب إلى الذخرين أن موتا
لولا رجاء لقائيها لما تبعت ... عَنْسِى دليلا كَسِرّ الغمد إصليتا[٢]
ولا صحبتُ ذئاب الإنس[٣] طاوية ... تراقب الجدى فى الخضراء مسبوتا[٤]

ولما استقر بالمعرة لزم داره ، وشرع فى التصنيف والإفادة ، وأخذ عنه الناس ، وقصده الطلبة من الآفاق ، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار ، وسمى نفسه : « رهن المحبسين » يعنى حبس نفسه فى المنزل ، وحبس بصره بالعمى .

وما فتئ وهو بعيد عن بلده ، يحن إليه ويشتاقه ، ويذكره فى شعره ، وفيه يقول :

سرى برقُ المعرة بعد وَهْن ... فبات برامة يصف الكَلَالا
شجا رَكْباً وأفراسا وإبلا ... وزاد فكاد أن يشجو الرحالا
بها كانت جيادهم مهارى ... وهم مُرْدًا وبُزْلُهمُ فِصالا

وقال :

فيابرق ليس الكَرْخُ دارى وإنما ... رمانى إليه الدهر منذ ليالِ
فهل فيك من ماء المعرة قطرة ... تغيث بها ظمآن ليس بسالِ

وقال أيضاً :

---

(١) المسفوت : القليل البركة .
(٢) الإصليت : الماضى الصقيل .
(٣) يريد بذئاب الإنس اللصوص .
(٤) المسبوت : من السبات ، وهو النعاس .

متى سألتْ بغداد عنى وأهلها فإنّىَ عن أهل العواصم سَأّلُ
وماء بلادى كان أنجع مشربا ولَوأنَّ ماء الكرخ صهباء جريال

على أنه لما أزمع الرحلة من بغداد ، عز عليه فراقها ، وفراق أوِدّائه فيها ، فقال من قصيدة يجيب بها أبا على النهاوندى :

وردنا ماء دجلة خير ماء وزرنا أشرف الشجر النخيلا
وزلنا بالغليل وما اشتفينا وغاية كل شىء أن يزولا

ونظم فى توديعها قصيدة يقول فيها :

أودعكم يا آل بغداد والحشا على زفرات ما يَنِينَ من اللذع
وداعَ ضَنٍ[1] لم يستقلّ وإنما تحامل من بعد العثار على ظَلْع
فبئس البديل الشام منكم وأهله على أنهم قومى وبينهمُ ربعى
ألا زودونى شربة ولَوَأنّنِى قدرت إذاً أفنيت دجلة بالجرع
وأنّى لنا من ماء دجلة نُغْبةٌ على الخِمْسِ من بُعد المفاوز والرِّبْعِ

وقال من أخرى :

لقد نصحتنى فى المقام بأرضكم رجال ولكن رب نصح مضيع
فلا كان سيرى عنكمُ رأى ملحد يقول ببأس من معاد ومرجع

أى لا كان سيرى عنكم ذهاباً بلا إياب . أخرجه مُخْرَجَ الدعاء .

---

(١) يقال ضنى كرضى فهو ضنى وضن : مرض .

فصل فى تلاميذه

قرأ على أبى العلاء ببغداد والمعرة كثيرون ، واشتهر جماعة منهم بالاختصاص به ، والانتساب إليه فى العلم ؛ كأبى المكارم عبد الوارث بن محمد الأبهرى ، وأبى تمام غالب بن عيسى الأنصارى ، والخليل بن عبد الجبار القزوينى ، ومحمد بن أحمد ابن أبى الصقر الأنبارى وغيرهم . وممن روى عنه : القاضى أبو القاسم على ابن القاضى المحسن ابن القاضى التنوخى ، وكان من أقرانه ، أخذ عنه وهو ببغداد ، وصحبه ، واتصلت صحبته بالتبريزى بسبب أبى العلاء . ولد القاضى المذكور ، سنة ٣٦٥ بالبصرة ، كما فى « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، أو فى سنة ٣٥٥ كما فى « فوات الوفيات » لابن شاكر ، والأول أصح . وتوفى سنة ٤٤٧ ، قبل وفاة أبى العلاء بنحو سنتين . وكان صدوقا فى حديثه ، وقبلت شهادته عند الحكام فى حداثته ، ولم يزل على ذلك مقبولا إلى آخر عمره ، وتولى قضاء عدة نواح ، منها المدائن وأعمالها ، وأذْرَبِيجَانُ والبَرَدَان وغير ذلك . وكانت فيه دعابة ، يروى أن إسكافا اجتاز بداره وهو نائم ، فصاح شرّاك النعال وأزعجه بصياحه ، فقال لغلامه : اجمع كل نعل فى الدار وأعطها لهذا يصلحها ويشتغل بها ، ثم نام واشتغل الإسكاف بإصلاحها إلى آخر النهار ، فلما كان فى اليوم الثانى فعل كذلك ، ولم يدعه ينام ، فقال للغلام : أدخله ، فلما دخل قال له : أمس أصلحت كل نعل عندنا ، واليوم تصيح على بابنا ، هل بلغك أننا نتصافع بالنعال ونقطعها ؟ يا غلام ، قفاه .

وسمع امرأة تقول لأخرى : كم عمر ابنتك ؟ فقالت : رزقتها يوم صفع

القاضى وضرب بالسياط ، فقال لها : أصار صفعى تاريخاً لك ما وجدت تاريخاً غيره ؟

وممن قرأ على أبى العلاء ، وهو ببغداد : الأديب المشهور بابن فورجة البرُوجرْدِىّ ، ذكر ذلك السيوطى . وهو صاحب « الفتح على أبى الفتح » ، و« التجنى على ابن جنى » ، يرد فيهما على ابن جنى فى شرح شعر المتنبى ، واختلفوا فى اسمه فقيل محمد بن حمد ، وسماه مجد الدين الشيرازى فى كتابه « البلغة فى أئمة اللغة » : حمد بن محمد ، ومن شعره :

أيها القاتلى بعينيه رفقاً ... إنما يستحق ذا مَنْ قلاكا
أكثر اللائمون فيك عتابى ... أنا واللائمون فيك فداكا
إن لى غَيْرَةً عليك من اسمى ... إنه دائماً يقبل فاكا

قال السيوطى : هذا الشعر يؤيد أن اسمه حَمَد . واختلفوا أيضاً فى اسم جده فورجة ؛ فقال السيوطى : بضم الفاء وسكون الواو وتشديد الراء المهملة وفتح الجيم . وقال ابن شاكر فى « فوات الوفيات » : فوزجة بالفاء المضمومة ، و بعد الواو والزاى جيم مشددة . وفى النسخ خلط فى ميلاده ووفاته .

وأشهر تلاميذ أبى العلاء : أبو زكريا يحيى بن على الخطيب التبريزى ، صاحب المصنفات النفيسة ، كشرح الحماسة والمعلقات وتهذيب ألفاظ ابن السِّكِّيت وغيرها ، ولد سنة ٤٢١ . وتوفى فجأة ببغداد سنة ٥٠٢ . ودخل مصر فى عنفوان شبابه ، ثم استوطن بغداد ، ودرّس الأدب بالنظامية ، وكان إماماً فى اللغة ثقة فيها ، إلا أنه كان مُسْتَهْتَرًا بالشراب ، وكان سبب رحلته إلى ابى العلاء انه تحصل على نسخة من كتاب « التهذيب » للأزهرى فى اللغة فى عدة مجلدات ، وأراد تحقيق ما فيها ، وأخْذَها عن رجل عالم باللغة ، فدلوه على

أبى العلاء ، فجعل الكتب فى مخلاة ، وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرة ، ولم يكن له ما يستأجر به مركوباً ، فنفذ العرق من ظهره إليها ، فأثر فيها . وكانت ببعض الوقوف ببغداد ، إذا رآها من لا يعرف صورة الحال ظن أنها غريقة ، وليس بها سوى عرق التبريزى .

وقال العلامة عبد الهادى نجا الأبيارى من شيوخ هذا العصر المتوفى سنة ١٣٠٥ ، فى كتابه « القصر المبنى على حواشى المغنى » عند كلامه على أبى العلاء المعرى : « ومما يدل على فضله ، أن الخطيب أبا زكريا يحيى التبريزى قرأ الأدب عليه ورحل إليه من تبريز ، وسيدى عبد القادر الجيلانى ، قرأ الأدب على التبريزى هذا ، فالشيخ شيخ شيخ الجيلانى . والله أعلم » .

قلت : والذى قاله الشيخ من قراءة الجيلانى الأدب على التبريزى صحيح ، ذكره ابن شاكر فى ترجمة الجيلانى من « فوات الوفيات » .

فصل فى مبلغ علمه وذكائه

اتفق محبوه ومبغضوه على أنه كان وافر البضاعة من العلم ، غزير المادة فى الأدب ، إماماً فيه ، حاذقا بالنحو والصرف ، نسيج وحده فى الذكاء والفهم وقوة الحافظة . أما اللغة وحفظ شواهدها وتقييد أوابدها فقد كان فيها أعجوبة من العجائب ، وحسبك أنهم إذا عددوا مَنْ رزقوا السعادة فى أشياء ، لم يأت بعدهم من نالها — عدّوا أبا العلاء ممن تفرد بسعة الاطلاع على اللغة . وكلامه الذى أورده فى رسالة الغفران فى بيتى النمر بن تولب ، وتغييره القوافى ، وتنزيلها على سائر حروف المعجم حلا حرف الطاء — يدل على اطلاع كبير ، وتمكن من اللغة والأدب قل ان يتفق نظيره لشخص . وخلاصة ما ذكره أن خلفا الأحمر تذاكر يوما مع أصحابه فى قول النَّمِر :

أَلَمَّ بِصُحْبَتِي وَهُمُ هُجُوعٌ خَيَالٌ طارِقٌ من أمِّ حِصْنِ
لَهَاه ما تَشْتَهِي عَسَلاً مُصَفًّى إذا شَاءَتْ وحُوَّارَى بِسَمْنِ

فقال لهم : لو كان موضع أم حِصْن ، أم حَفْص ؛ ما كان يقول فى البيت الثانى ؟ فسكتوا ، فقال : حُوَّارى بِلَحْصٍ ، يعنى الفالوذج . والحوارى الدقيق الأبيض وهو اللُّباب ، فغير أبو العلاء قوافى البيتين على حروف المعجم ، وربما أتى فى الحرف بالقافيتين والثلاث ، ولا يتفق هذا إلا لمن رزق حظا وافراً من الاطلاع ، والمسألة مبسوطة فى الرسالة ، فارجع إليها إن شئت لتعلم صحة ما قلناه .

وذكر غير واحد من اللغويين أن أبا العلاء لما دخل بغداد ، اعترضوا عليه فى حَلقة ابن المحسّن ، لقوله :

ويوشَعُ ردَّ يُوحَى بعضَ يَوْمٍ وأنتَ متى سَفَرْتَ رَدَدْتَ يُوحَا

ويُوح ويُوحى بضمهما من أسماء الشمس ، فقالوا له : صحفت إنما هو بوح بالباء الموحدة . واحتجوا عليه بكتاب الألفاظ لابن السِّكِّيت ، فقال لهم : هذه النسخ التى بأيديكم غيّرها شيوخكم ، ولكن أخرجوا ما فى دار العلم من النسخ العتيقة ، فأخرجوها فوجدوها مقيدة كما قال .

واحتج به ياقوت فى معجم البلدان فى تصحيح لفظة الضُّراح ردًّا على من قال إنها بالصاد المهملة ، فقال : ألا ترى إلى أبى العلاء أحمد بن سليمان المعرى ، كيف جمع بين الضُّراح والضَّريح إرادة للتجنيس والطباق ، فقال :

لقد بلَغ الضُّراح وساكنيه نَثاكَ وزار من سكن الضَّريحا

والنَّثا مقصوراً و بتقديم النون على الثاء : الخبرُ . ومن غريب ما يروونه عنه فى ذلك أنه دخل على الشريف أبى القاسم المُرْتَضَى أخى الشريف الرضى ، وهو ببغداد ، فعَثَرَ برجُل فقال : من هذا الكلب ؟ فقال أبو العلاء : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً . وسمعه المرتَضَى فأدناه واختبره فوجده عالما مُشْبَعًا بالفطنة والذكاء ، فأقبل عليه إقبالا كثيراً . قلت : ومن هذا هرب جلال الدين عبد الرحمن السيوطى فجمع أكثر من ستين اسماً للكلب ، ونظمها فى أرجوزة سمّاها « التبرّى من معرّة المعرّى » ، رأيت أن أوردها هنا إتماماً للفائدة لعزة وجودها ، ثم أُعقبها بشرح يميط اللثام عن الأسماء الواردة فيها ، وأتبعه بما استدركته على الناظم من أسماء الكلب ، وهى :

لله حَمْدٌ دائمُ الوَلِىِّ ثمَّ صَلاتُهُ عَلَى النَّبِىِّ

قَدْ نَقَلَ الثِّقَاتُ عن أَبِى العَلَا لما أَتَى للمرتَضَى وَدَخَلَا

قال له شَخْصٌ به قد عَثَرَا مَن ذٰلِكَ الكلبُ الَّذِى ما أَبْصَرَا

فَقَالَ فى جَوَابِهِ قَوْلاً جَلِى ... مُعَـــبِّراً لذلكَ المُجَهَّلِ

الكلب من لم يدر من أسمائه ... سَبْعِينَ مُومِيًا إلى عَلَائِهِ

وقد تَتَبَّعْتُ دَوَاوِينَ اللُّغَهْ ... لعَلَّنِى أجمعُ مِن ذَا مَبْلَغَهْ

فَجِئْتُ منها عَدداً كَثِيراً ... وأرتجى فيما بَقِى تَيْسِـــيرَا

وقد نَظَمتُ ذاكَ فى هذا الرَّجَزْ ... لِيَسْتَفِيدَها الذى عنها عَجَزْ

فسَمِّهِ هُدِيتَ بالتَّـــبَرِّى ... يا صاح من مَعَرَّةَ المَعَرِّى

١ — من ذَلِكَ البَاقِعُ ثم الوَازِعُ ... والكَلْبُ والأَبْقَعُ ثم الزارِعُ

٢ — والخَيْطَلُ السُّحَامُ ثمَّ الأَسَدُ ... والعُرْبُجُ العَجُوزُ ثم الأَعْقَدُ

٣ — والأَعْنَقُ الدِّرْبَاسُ والعَمَلَّسُ ... والقُطْرُبُ القُرْنِىُّ ثم الفَلْحَسُ

٤ — والنَّغِمُ الطَّلْقُ مع العَوَّاءِ ... بالمَدِّ والقَصرِ على السَّواءِ

٥ — وعُدَّ من أَسْمَائِهِ البصيرُ ... وفيـــــه لُغْزٌ قاله خَبِير

٦ — والعُرْبُ قد سَمَّوْهُ قِدْمًا فى النَّفِير ... داعى الضَّمِيرِ ثم هاء فى الضَّمِيرْ

٧ — وهكذا سَمَّوْهُ دَاعِىَ الكَرَمْ ... مشيِّد الذكر متمم النعم

٨ — وثَمْثَمٌ وكالِبٌ وهِبْلَعُ ... ومنذرٌ وأَهْوَجٌ وهِجْرَعُ

٩ — ثم كُسَيْبٌ عَلَمُ المذكَّرِ ... مِنْهُ عَنِ الهمزةِ واللَّامِ عَرِى

١٠ — والقَلَطِىُّ والسَّلُوقِى نِسْبَهْ ... كذا النَّصِيبِىُّ بذاكَ أَشْبَهْ

١١ — والمُسْتَطِيرُ هائِجُ الكِلابِ ... كَذَا رواهُ صَاحِبُ العُبَابِ

١٢ — والدِّرْصُ والجِرْوُ مُثَلَّثُ الفَا ... لولد الكلب أَسَامٍ تُلْفَى

١٣ — والسِّمْعُ فيما قالَه الطُّولىُّ ... وهو أَبُو خالدٍ المَكْنِىُّ

١٤ — ونقلوا أَلزَّاهِدُونَ للكلابْ ... وُكَلْبَةٌ قيل لها أيضاً كَسابْ

١٥ — مِثْلُ قَطَامِ عَلَمًا مَبْنِيًّا ... وكَسْبَةٌ كذاكَ نَقْلاً رِيًّا

١ — وخُذْ لَهَا العَوْنَقَ والمُعَاوِيَهْ ولَعْوَةً وكُنْ لِذَاكَ رَاوِيَهْ
١ — وَوَلَدَ الكلبِ من الذِّئْبَةِ سَمْ عُسْبُورَةٌ وإن تُزِلْهَا لا تُلَمْ
١ — وألْحَقوا بذَلِكَ الخَيْهَفَعَى وإن تَمُدَّ فهْو جاء سَمْعَا
١ — وَوَلَدُ الكَلْبَةِ من ذِئْبٍ سُمِي وثعلبٍ فيما رَوَوْا بالدَّيْسَمِ
٢ — ثم كلابُ الماءِ بالهَرَاكِلَهْ تدعى وقس فرداً على ما شاكله
٢ — كذاكَ كلبُ الماءِ يُدعى القُنْدُسَا فيما رَوَى ابنُ دِحيةٍ قد انتَسَى
٢ — وكلبةُ الماءِ هي القُضَاعَهْ جميعُ ذاكَ أثبتوا سَمَاعَهْ
٢ — وعَدَّدُوا من جِنْسِهِ ابنَ آوَى ومن سُمَاه دَالٌ قَدْ سَاوَى
ودُئِلٌ ودُؤَلٌ والدَّأَلانْ وافتحْ وضُمَّ مُعْجِمًا للذَّألان
كذَلِكَ العِلَّوْضُ ثم النَّوْفَلُ واللَّغوض السُّرْحوبُ فيما نَقَلوا
والوَعُّ والعِلَّوْشُ ثم الوَعْوَعُ والشَّغْبَرُ الوَأْواه فيما يُسْمَعُ
هذا الذى من كُتُبٍ جَمَعْتُهُ وَما بَدَا مِن بَعْدِ ذا أَلْحَقْتُهُ
والحمدُ لله لَهَا خِتَامُ ثُمَّ على نَبِيِّهِ السَّلامُ

تمت الأرجوزة . ولنشرع فى شرحها معتمدين على ما دوّنوه فى كتب اللغة والأمثال والحيوان : وقد وضعنا أرقاماً للأبيات يرجع إليها فى هذا الشرح ، فنقول :

(١) البَاقِع والأَبْقَعُ من الكلاب الذى خالط بياضه لونٌ آخر ، والبَقَع فى الطير والكلاب بمنزلة البَلَق فى الدواب ، وقول الأَخْطَل :

كلوا الضَّبَّ وابنَ العَيْرِ والبَاقِعَ الذى يَبِيتُ يَعُسُّ اللَّيْلَ بين المقابرِ

قيل أراد الكلاب ، وقيل غير ذلك ، والعرب تقول : لا خير فى بَقَع الكلاب . وترى التَّبْقِيعَ هُجْنَةً فيها ، وخير الكلاب عندها ما كان لونه يذهب

إلى لون الأسد ، وخير كلاب الصيد البيض . وفى المخصص : البَقَعُ بياض فى صدر الكلب الأسود ، وهى البُقْعَةُ ، وكلبٌ أَبْقَع والجمع بُقْعَان . والوازع الكلب لأنه يَزَعُ الذِّئْبَ عن الغنم أى يكفُّه ، ويقال له ابن وازع أيضاً . والكلاب كل سَبُعٍ عقور ، ثم غلب على هـذا النابح ، كما فى القاموس . وقال شارحه : قال شيخنا : بل صار حقيقة لغوية فيه لا تحتمل غيره ، ولذلك قال الجوهرى وغيره : هو معروف ، ولم يحتاجوا لتعريفه لشهرته . انتهى . وهو من الأسماء التى تَسَمَّتْ بها العرب ؛ فمن مشهوريهم فى ذلك : كُلَيْبُ بن ربيعة من بنى تَغْلِب بن وائل ، وهو الذى ضربوا به المثل ، فقالوا : أَعَزُّ من كليب وائل ، وقامت الحرب بسببه بين بَكرٍ وتغلِب . وكان اسمه فى الأصل وائلا ؛ وإنما سموه كليباً ، لأنه بلغ من عزه أنه كان يحمى الكلأ فلا يقرب حماه ، ويجير الصيد فلا يُهاج . وكان إذا مر بروضة أعجبته ، أو غدير ارتضاه ، كنَّع كُلَيبًا ثم رمى به هناك ، فحيث بلغ عواؤه كان حِمًى لا يُرعى ، فلما حمى كليبه المرمىُّ الْكَلَأَ قيل : أعز من كليب وائل . ثم غلب هذا الاسم عليه حتى ظنُّوه اسمه ؛ كذا فى مجمع الأمثال للميدانى . وقوله : كنَّع هو بمعنى بضَّع وكوَّع أى ضربه فصيره مُعَوَّج الأكواع . ومنهم كليب بن حبشية بن سَلُول فى خُزَاعة . وكلب بن عمرو بن لُؤَى فى بَجيلَة . وبنو كلب ، وبنو أكلب ، وبنو كلبة وبنو كلاب ، قبائل معروفة ، منها فى قريش كلاب بن مرة ، وفى هَوَازِن كلاب بن ربيعة بن صَعْصَعَة . أما ذو الكلب فهو عَمْرُو بن العَجْلان أحد شعراء هذيل ، لقب به لأنه كان له كلب لا يفارقه . وعائد الكلب هو عبد الله بن مُصْعَب ، كان والياً للرشيد على المدينة ، لُقِّب بذلك لقوله :

مالى مَرِضت فلمْ يَعُدْنى عائدٌ منكم ويمرض كلبكم فأعود

وهو أحد من نطقوا فى الشعر بكلمات غلبت شهرتها عليهم ، فلُقِّبوا بها ،

وربما جمعتُ ما وقفت عليه من ذلك فى رسالة مستقلة . والسبب الذى دعا العرب إلى تسمية أبنائها بمثل هـذه الأسماء المستكرهة كالكلب والذئب والحجر والصخر ، هو ما ذكره الراغب وغيره أن أعرابيا سئل : لِمَ سمّوْا أبناءهم بالأسماء القبيحة ، وعبيدهم بالحسنة ؟ فقال : لأن أبناءهم لأعدائهم ، وعبيدهم لأنفسهم .

قلت : وقد فصّل الإمام شمس الدين محمد بن أبى بكر المشهور بابن قيم الجوزيّة مذاهب العرب فى تسمية أبنائها تفصيلا ترتاح إليـه النفس ويثلج به الفؤاد ، فقال فى آخر كتابه « مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة » عند الكلام على الفأل والطِّيَرَة ، ما نصه : وكانت لهم مذاهب فى تسمية أولادهم : فمنهم من سموه بأسماء تفاؤلا بالظفر على أعدائهم ، نحو غالب وغلاب ومالك وظالم وعارم ومنازل ومقاتل ومعرك ومسهر ومؤرق ومصبح وطارق ؛ ومنهم من تفاءل بالسلام كتسميتهم بسالم وثابت ونحوه ، ومنهم من تفاءل بنيل الحظوظ والسعادة كسعد وسعيد وأسعد ومسعود وسعدى وغانم ونحو ذلك ؛ ومنهم من قصد التسمية بأسماء السباع ترهيباً لأعدائهم نحو أسد وليث وذئب وضرغام وشبل ونحوها ، ومنهم من قصد التسمية بما غلظ وخشن من الأجسام تفاؤلا بالقوة كحجر وصخر وفهر وجندل ، ومنهم من كان يخرج من منزله وامرأته تمخض ، فيسمى ما تلده باسم أول ما يلقاه ، كائناً ما كان ، من سبع أو ثعلب أو ضب أو كلب أو ظبى أو حشيش أو غيره . انتهى المقصود منه .

وأمّا ما سمّى بالكلب أو أضيف إليه من البقاع والسيوف والأنهار وغيرها ، فقد تركنا ذكره طلبا للاختصار ، ونقتصر منها على قرية بحلب تسمّى جُبَّ الكلاب ، تعد من العجائب لاشتهارها ببئر فيها إذا شرب منها المكلوب قبل أن يأتى عليه أربعون يوماً برأ . كذا ذكر صاحب القاموس فى مادة ج ب ب .

وقال ياقوت فى معجمه : حدثنى مالك هذه القرية ابن الإسكافى ، وسألته عما يحكى عن هذا الجب وأن الذى نهشه الكَلب الكَلِب إذا شرب منه برأ ، فقال : هذا صحيح لا شك فيه . قال : وقد جاءنا منذ شهور ثلاث أنفس مكلو بين يسألون عن القرية ، فدُلُّوا عليها ، فلما حصلوا فى صحرائها اضطرب أحدهم وجعل يقول لمن معه : ار بطونى لئلا يصل إلى أحدكم منى أذى ، وذلك أنه كان قد تجاوز أربعين يوماً منذ نُهش ، فرُبط ، فلما وصل إلى الجُب وشرب من مائه مات . وأما الآخران فلم يكونا بلغا أربعين يوماً ، فشربا من ماء الجُبّ فبرآ . قال : وهذه عادته ، إذا تجاوز المنهوش أربعين يوماً لم تكن فيه حيلة . إلى أن قال : وهذه البئر هى بئر القرية التى يشرب منها أهلها . انتهى . قلت : ولا أدرى ما فعل الله بالقرية والبئر ، وإنما خصصتها بالذكر دون غيرها تنبيهاً لأطباء هذا العصر ، لعلهم يتوفقون للبحث والتنقيب عنها ، حتى إذا وجدوها امتحنوا ماءها ، فربما كان فيه من الأملاح أو غيرها ما من خاصيته شفاء هذا المرض ، وعسى ألا تأخذهم حميّة جاهليّة فيضربوا بهذا القول عرض الحائط بغير حجة سوى ما اعتادوه من احتقار أقوال علمائنا المتقدمين ، فلولا تجربة هذا الماء وظهور نفعه فى المصابين قبل أن يجاوزوا أربعين يوماً ، أى قبل استفحال الداء وتمكنه منهم ، لما استفاض خبره ، ونقله هؤلاء الأعلام ، ولا فائدة لمثلهم فى التواطؤ على الكذب فى مثله .

والزَّارِع بتقديم الزاى على الراء الكلب ، وفى القاموس : زارع اسم كلب ، ومنه قيل للكلاب : أولاد زارع ، وفيه أيضاً فى مادة ذرع بالذال المعجمة : أولاد ذَارع ، وذِراع بالكسر : الكلاب . وفى المخصص : قال على بن حمزة : ابن زارع وابن ذارع وابن وازع : الكلب ، وربما سمّى وازعا أيضا . انتهى .

الخَيْطَل بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء المثناة التحتية ، وفتح الطاء المهملة وبعدها لام : الكلب . والسُّحام بضم السين المهملة ، وبعدها حاء مهملة ، مأخوذ من السُّحْمَة وهى السَّوَاد ، والذى يؤخذ من نصوص كتب اللغة أنَّه عَلَمٌ عَلَى كلْب مُعَيَّن لا اسم جنس للكلاب . قال الجوهرى : سُحَام اسم كلب ، واستشهد بقول لبيد :

فَتَقَصَّدَتْ منها كَسابِ فضُرِّجَتْ بدَمٍ وغُودِرَ فى المَكَرِّ سُحَامُها

ووافقه فى ذلك شُرَّاحُ المعلقات ، وهو ظاهر من سياق البيت . وفى لسان العرب : سُحَيْمٌ وسُحَامٌ من أسماء الكلاب ، ثم أنشد بيت لبيد . وذهب صاحب القاموس إلى أن صوابه بالمعجمة قال : وَوَهِمَ الجوهرى . قلت : لا وَهَم ؛ فقد ذكر بعض شراح المعلقات أنه يروى بهما ، ووافقه الميدانى فى مجمع الأمثال عند تفسير قولهم (هَنِيئاً لسُحَام ما أكل) فإنه أورد البيت ثم قال : ويروى سُخَامُها بالخاء . وهذا المثل يضرب فى الشماتة بهلاك العدو . وقول الزَّوْزَنى فى شرح المعلقات إنه اسم كلبة ، يخالف ما أجمعوا عليه من أنه اسم كلب ذكَرٍ . والله أعلم . والأسد لم أعثر فى كتب اللغة على أنه يطلق على الكلب ، وإنما الذى فيها أن الكلاب من أسماء الأسد . والعُرْبُجُ بضم العين المهملة ، وسكون الراء وضم الباء الموحدة ، وبعدها جيم : الكلب الضخم ، كما فى القاموس ، أو كلب الصيد ، كما فى اللسان . والعَجُوز بفتح العين المهملة وضم الجيم وبعدها واو ساكنة وزاى : من أسماء الكلاب . والأعْقَد بالعين المهملة ، والقاف ، والدال المهملة : الكلب ، لانعقاد ذَنَبه ، جعلوه اسما له معروفا ، قال جرير :

تَبُولُ على القَتَاد بناتُ تيْم مع العُقْدِ النَّوَابِحِ فى الدِّيارِ

قالوا : ليس شىء أحب إلى الكلاب من أن يبول على قتادة أو على شجيرة صغيرة غيرها . وروى الجاحظ فى كتاب « الحيوان » لمساور بن هند يهجو قوماً يأكل الكلاب :

إذا أَسَدِيَّةٌ وَلَدَتْ غُلاماً فبشِّرها بلُؤْمٍ فى الغُلامِ
يُخَرِّسُها نساءُ بنى دُبَيْرٍ بأخبَثِ ما يكون من الطَّعامِ
ترى أَظْفَارَ أَعْقَدَ مُلْقَياتٍ بَرَاثِنُها عَلَى وَضَمِ الثُّمامِ

يُخَرِّسها أى يصنعن لها الخُرسة وهى طعام النُّفَساء ، ودُبَيْر بالتصغير أبو قبيلة من أسد ، والوَضَم بالتحريك ما وقيت به اللحم عن الأرض من خشب أو حصير ، والثُّمام نبت ضعيف لا يطول كانوا يفرشونه تحت الأساقى ونحوها ، وربما حَشَوا به وسدُّوا خَصَاصَ البيوت .

(٣) الأَعْنَقُ بالعين المهملة والنون والقاف : الكلب فى عنقه بياض ، ويقال للقلادة التى توضع فى عنق الكلب : مِعْنَقَة ، وقد أَعْنَقَهُ إذا قلده إياها ، ويقال لها أيضاً الجِدَّة بالكسر ، وكذلك الأُرْبَة بالضم : قلادة الكلب التى يقاد بها .

والدِّرْباس بكسر الدال المهملة وسكون الراء وبعدها باء موحدة وألف وسين مهملة : الكلب العقور . والعَمَلَّس بفتح العين المهملة والميم واللام المشددة ، وبعدها سين مهملة : كلب الصيد كما فى القاموس ، أو الكلب الخبيث كما فى اللسان . على أنه أنشد بعد ذلك قول الطِّرِمَّاح يصف كلاب الصيد :

يُوَزِّعُ بالأمراسِ كل عَمَلَّسٍ من المطْعِياتِ الصَّيْدِ غيرِ الشَّواحِنِ

وقال فى تفسير يوزع : يكف ، ورواه فى مادة ودع : يودِّع ، ثم قال : أى يقلدها وَدَعَ الأمراس .

والقُطْرُبُ بضم القاف وسكون الطاء المهملة وضم الراء ، وبعدها باء موحدة : الصغير من الكلاب . وفى المخصص : القَطْرَبُ (أى بفتح القاف والراء) صغار الكلاب ، زعموا أن الواحد قُطْرُب ، وليس هو جمع بل اسم للجمع انتهى ملخصاً .

والفُرْنِيّ بضم الفاء وسكون الراء وبعدها نون وياء مشددة : الكلب الضخم ، قال العَجّاج :

وطَاحَ فى المعرَكَةِ الفُرْنِيّ

قال ابن بَرّىّ : أراد الضخم من الكلاب ، وقال غيره : إنما أراد الرجل الضليع الضخم .

والفَلْحَسُ بفتح الفاء وسكون اللام وفتح الحاء المهملة وبعدها سين مهملة : الكلب . قال الجاحظ فى كتاب الحيوان : ويقال للكلب فَلْحَس ، وهو من صفات الحرص والإلحاح ، ويقال : فلان أسأل من فَلْحَس . وفَلحس رجل من بنى شيبان كان حريصاً رغيباً ومُلحفاً مُلِحّاً ، وكل طُفَيْلىّ فهو عندهم فلحس . انتهى . قلت : وإنما سمّوا الكلب بذلك لأنه موصوف عندهم بالحرص والإلحاح ، حتى قالوا فى أمثالهم : (ألَحُّ من كلْب) .

(٤) الثَّغِم : بفتح الثاء المثلثة وكسر الغين المعجمة وبعدها ميم : الكلب الضارى . والطَّلَقُ بفتح الطاء المهملة وسكون اللام وبعدها قاف : كلب الصيد .

والعَوّاء بالعين المهملة وبالمد ، ويقال أيضا بالقصر : الكلب يعوى كثيرا . للوزير أبى الوليد إسماعيل بن حجاج الأعلم الأشبيلى فى فتى عضه كلب فى خدّه :

وأَغْيَدَ وضّاح المبـاسم باسم ... إذا قام الأرواح ناظِرُه قَمَرْ
تعمّدَ كلبٌ عَضّ وَجْنَتِه التى ... هى الورد إينانا وأبقى بها أثَرْ
فقلت لشُهْب الأُفقِ كيف صُمِمْتكم ... وقد أثّر العوّاء فى صفحة القمَرْ

هكذا رواها صاحب « نفح الطيب » فى موضع من كتابه ، منسوبة للوزير المذكور ، وأعادها فى موضع آخر منسوبة لأبى القاسم بن هشام ، وروى المحاسن بدل المباسم ، والأسياف بدل الأرواح . والله أعلم .

والصُّمات بالضم والصَّمت والصُّموت : السكوت ، يشير بذلك إلى قولهم لا يضر القمر نبح الكلاب ، وأصل المثل « لا يضر السحاب نبح الكلاب » لأن كلاب البادية تتأذى بالمطر لمبيتها أبداً تحت السماء ، فإذا أبصرت غيم نبحته ، لأنها قد عرفت ما تلقى من مثله . وتنبح أيضاً القمر ، لأنه إذا طلع من المشرق يكون كقطعة غيم ، ومنه قول بعضهم :

يا جابرَ بن عديٍّ أنت مِعْ زُفَرٍ كالكلب ينبح من بُعدٍ على القمر

(٥) البَصير بفتح الباء الموحدة ، وكسر الصاد المهملة ، وبعدها ياء ساكنة وراء مهملة ، لم يذكره القاموس ، وأنشد صاحب اللسان لتوبة :

وأشرفُ بالقُورِ اليَفاعِ لعلَّني أرَى نارَ لَيْلَى أوْ يَرانِي بَصِيرُها

ثم قال نقلا عن ابن سيده : يعني كلبها ، لأن الكلب من أحدّ العيون بصرا . انتهى .

قلت : وقد جاء في أمثالهم « أبصر من كلب » . وقول الناظم : « وفيه لغز قاله خبير » يريد بذلك قول الحريري في المقامة الثانية والثلاثين في فتاوى فقيه العرب « قال : أيُسْتَبَاحُ ماء الضرير ؟ قال : نعم ، ويُجْتَنَبُ ماء البصير » فالمتبادر أن الضرير هو الأعمى وهو لا يستباح ماؤه الذي يملكه بدون علمه ، ومراد الشيخ به : حرف الوادي ، وكذلك المتبادر في البصير أنه ضد الأعمى ، وماؤه إذا أخذ للوضوء باطلاعه لا يجتنب ، وإنما أراد به الكلب . هكذا فسره الحريري نفسه في المقامة .

(٦) هكذا رواية البيت في نسختين من الأصل ، ولم يظهر لي وجه تسمية العرب للكلب في نفيرهم بداعي الضمير أو داعي الضميرة كما يفهم من سياقه ، فلعل الكلام محرف ، وقد دخل البيت التذييل ، وهو من علل الزيادة ، ودخوله في الرجز مغتفر للمولدين .

(٧) قوله : داعى الكرم ، إنما سموه بذلك على مايظهر ، لأن نباح الكلب يبشرهم بقدوم الضيف ، ويرشده إلى منزلهم ، فيكون سبباً للكرم وداعياً إليه . وقد كان الرجل من العرب إذا ضل وتحير فى الليل ، فلم يدر أين البيوت ، أخرج صوته على مثل النباح ، فتسمعه الكلاب وتظنه كلباً ، فتنبح ، فيستدل بنباحها ويهتدى إلى المكان . وهو الذى تسميه العرب بالمستنبح . وأنشد أبو على القالى فى أماليه :

ومُبدٍ لىَ الشَّحْنَاءَ بينى وبينَه دعوتُ وقد طال السرى فدعانى

يعنى كلباً ، ويريد نبحت له فنبح فاهتديت به ؛ فكأنه دعانى بنباحه . وأنشد أبو على أيضاً :

ومُستَنبِحٍ بات الصَّدَى يَستَتيهُهُ فتَاهَ وجَوْزُ الليل مضطرب الكِسْر
رَفَعتُ له ناراً ثَقُوباً زنادها تُليحُ إلى السَّارى هلمّ إلى قِدْرِى
فلما أتى والبؤس رادف رَحْلَه تلقيتُه منى بوَجْه امرئٍ بَشْرِ
فقلت له أهلٌ بأهلٍ فلم يَجُزْ بك الليلُ إلا للجميل من الأمر
وكادت تطير الشَّوْلُ عِرْفَانَ صَوْتِه ولم تُمسِ إلا وهى خائفة العَقْرِ

انتهى . وقد اتفق أكثر علماء الأدب ، كابن رشيق وأضرابه ، على أن أهجى بيت قالته العرب ، قول الأخطل فى بنى يربوع قوم جرير :

قوم إذا استَنبَح الأضيافُ كلبَهُمُ قالوا لأمِّهُمُ بولى على النار

وقال آخر يوصى بالكلب ، وأنشدها الجرجانى فى كناياته ، وقال ابن المرزبان : إنهما لأعرابى قالهما لأكبر ولده فى كلبه :

أوصيك خيراً به فإنَّ له خلائقاً لا أزال أحمدُها
يدل ضيفى علىّ فى غسق الليـــــل إذا النار نام مُوقدها

وفى معنى استَنْبح أيضاً : كلَب الرجلُ يكْلِبُ من باب ضرب ، واستكلب ، أنشد ابن سيده على الأول :

وداعٍ دعا بعـــد ما أقفرت عليـــــه البلاد ولم يكْلِبِ

وأنشد صاحب اللسان على الثانى :

ونبح الكلاب لمُسْتَكلِبِ انتهى .

قلت : وكما يكون الكلب سببا لإيصال الخير وتشييد الذكر ، فقد يكون أيضاً سببا للشر ، كما جنت على أهلها براقِشُ ، وهى كلبة كانت لقوم من العرب ، فأغير عليهم ، فهربوا وهى معهم ، فاستدل العدو عليهم بنباحها ، فهجموا عليهم واصطلموهم ، فقالوا (على أهلِها تجْنِي بَرَاقِشُ) هكذا رواه الميدانى فى مجمع الأمثال ، ورواه ابن سيده فى المخصّص ، والجاحظ فى كتاب الحيوان : (على أهلها دلّت براقش). على أن نباح الكلب على الضيف وإن جعلوه من دواعى الكرم ، لما سبق ذكره ؛ فقد رأيناهم يعدونه فى نفسه من خصاله المذمومة ، لأنه لا ينبح على القادم إلا كراهة منه فى الغريب. ومن أحسن ما يروى فى هذا الصدد نادرة أبى عبدالله محمد بن مرزوق عالم المغرب مع أهل تونس لمّا ورد عليهم وسألوه قراءة درس فى التفسير بحضرة السلطان ، فأجابهم إلى ذلك ، وعينوا له محل البدء ، فطالع فيه ، فلما حضروا قرأ القارئ غير ذلك ، وهو قوله تعالى : « فمثله كمثل الكلب .. الآية » وأرادوا بذلك إفحام الشيخ والتعريض به ، فوجم هنيهة ثم تفجر بينابيع العلم ، إلى أن أجرى ذكر ما فى الكلب من الخصال المحمودة ، وساقها أحسن مساق ، وأنشد عليها الشواهد ، وجلب الحكايات ، حتى عدّ من ذلك جملة ؛ ثم قال فى آخرها : فهذا ما حضر من محمود أفعال الكلب وخصاله ، غير أن فيه خَصْلة ذميمة ، وهى إنكاره للضيف . انتهى .

وعندى أن ذمهم له بإنكاره الضيف لم يقصدوا به إلا معنى من المعانى الشعرية ، إلا فأى فائدة من الكلب أعظم من حراسته أهله ، ودفعه عنهم ؟ !

(٨) الشَّمْشَمْ بفتح الثاءين المثلثتين وسكون الميم الأولى : كلب الصيد . الكالب ليس اسما للكلب ، بل هو والكليب كأمير : جماعة الكلاب ، وفى لسان : الكليب كالعبيد ، جمعٌ عزيز . وأنشد فى وصف مفازة :

كأنّ تَجَاوُبَ أصْدَائِهَا مُكَاءَ المُكَلِّبِ يَدْعُو الكَلِيبا

والمكلِّب بكسر اللام المشددة : معلِّم كلاب الصيد ، ومُكاؤه : صفيره . وقال شارح القاموس نقلا عن شيخه : إنهم اختلفوا فى الكليب هل هو جمع أو اسم جمع ، وصححوا أنه إذا ذكّر كان اسم جمع كالحجيج ، وإذا أنث كان جمعا كالعبيد . انتهى .

وهِبْلَع كدرهم ؛ أى بكسر الهاء وسكون الباء الموحدة وفتح اللام و بعدها عين مهملة : الكلب السَّلُوقى ، واسم كلب بعينه . ومُنذِر كأنه من إنذار أهله كالطارق . وأهْوَج لم يذكروه ، وذكره الجاحظ على أنه الكلب فى بيت أنشده فى كتاب الحيوان . والهِجْرَع بكسر الهاء وسكون الجيم وفتح الراء و بعدها عين مهملة : الكلب السَّلوقى الخفيف .

(٩) كسَيْبٌ مصغَّراً : اسم كلب ، كما فى المخصص ، وفى اللسان : كسَيْبٌ من سماء الكلاب ، ومراده من الأعلام التى تسمى بها الكلاب ؛ كما وضحه الناظم فى البيت . وقد خصوه بذكور الكلاب كما خصوا كَسَابٍ وكَسْبَةَ بإناثها . وسيأتى قول الناظم فيهما ، وإنما كانوا يسمون كلابهم بذلك تفاؤلا بالكسب والاكتساب .

(١٠) القَلَطِىّ بفتح القاف واللام وكسر الطاء المهملة و بعدها ياء مشددة ، القُلَاط كغراب ، والقِيلِيط بكسر القاف واللام ؛ كل ذلك القصير المجتمع من

الناس والسنانير والكلاب ، وقد جاء به أبو الشمقمق فى قوله من أبيات :

جِئْتُه زائراً فأدْنَى مكانى ... وتَلَقَّى بِمَرْحَبٍ وَتَحِيَّهْ

لا كَمِثْلِ الأصَمِّ حارِثَةِ اللُّؤْ ... مِ شبيه السُّكَيْبَةِ القَلَطِيَّهْ

وفى حياة الحيوان أن القَلَطِىَّ نوع من الكلاب السَّلُوقية صغير الجِرْم قصير القوائم ، ويقال له : الصِّينِىّ .

والسَّلوق بفتح السين المهملة ، نسبة إلى سَلوق ، وهى أرض أو قرية باليمن ، وذهب الجوهرى إلى أنها مدينة بالشام ، قال القُطَامِىّ :

مَعَهُم ضَوَارٍ مِنْ سَلوقَ كأنّها ... حُصُنٌ تَجُولُ تُجَرِّرُ الأرْسَانَا

وفى معجم ياقوت نقلا عن ابن الحائك ، وهو يذكر اليمن : سلوق كانت مدينة عظيمة بأرض الجديد ، واسم بقعتها اليوم حسل الزينة . إلى أن قال : وإليها كانت العرب تنسب الدروع السَّلُوقية والكلاب السلوقية . انتهى . وقيل : سلوق بلد بطرف أرمينية يعرف ببلد اللّان ، وتنسب إليه الكلاب . وقيل : بل هى منسوبة إلى سَلَقْيَة بفتحتين فسكون وياء مفتوحة مخففة : بلد بالروم ، فلما نسبوا إليه قالوا : سَلوقِىّ ، فغيروا النسب . وجاء فى اللسان : سَلوق أرض باليمن ، وفى التهذيب : قرية باليمن ، وهى بالرومية : سَلَقْيَة . انتهى . فسلقية على هذا فى اللغة الرومية هى سلوق التى باليمن . والله أعلم . أما علماء الحيوان من الأفرنج اليوم ، فيقسمون السلوقى إلى عدة أنواع ، لكل صقع نوع ؛ واسمه فى لغة الفرنسيس اڤريه (Lévrier) ويذهبون إلى أن أنواعه تفرعت من جنس أصلىّ كان فى سهول غربى آسيا ، ولهم فى تعديدها كلام كثير ليس هذا موضعه . ورأيت فى المعجم الكبير للارُوسَ أن السلوقى (Slougui) الحقيقى يوجد فى الأقاليم الهندية الغربية ، وهو أشهبُ اللون .

والنَّصِيبى بفتح النون وكسر الصاد المهملة ، نسبة إلى نَصِيبين ، ويقال النسبة إليها : نَصِيبِينِىٌّ أيضاً . وهى ثلاثة مواضع : مدينة من بلاد الجزيرة ، ية من قرى حلب ، ومدينة بشاطئ الفرات ، تعرف بنصيبين الروم . ولم أحداً نص على اشتهار واحدة منها بنوع من الكلاب ينسب إليها ؛ فإما أن ون الناظم رآه فى كتاب لم نطَّلع عليه ، أو يكون أراد الصِّينِىَّ ، فحرَّفه الناسخ ، لى هذا يكون الشطر (كذلك الصِّينِى بذاك أَشْبَه) أو نحو ذلك . وقد مر بك ، الدميرى فى « حياة الحيوان » أن القلطى يقال له : الصينى . فقول الناظم (بذاك به) بعد ذكره القلطىّ ، يرجح أنه أراد الصينى . على أن كثيراً من أئمة اللغة لم كروا الصينى إلا فى معرض ردِّه وتغليط قائله ؛ فقالوا : كَلْبٌ زِئْنِىٌّ : قصيرٌ ، ولا ، صينى . ورأيت الجاحظ جمع بينهما فى كتاب الحيوان فقال : (والكلب الزِّئنىُّ ينى يُمرَّج على رأسه ساعات كثيرة من الليل ، فلا يتحرك . وقد كان فى ضبة كلب زئنى صينى يُسرَّج على رأسه ، فلا ينبض فيه نابض ، ويدعونه ه ، ويُرْمى إليه بمَضْغة اللحم ، والمسرجة على رأسه ، فلا يميل ولا يتحرك ، حتى ون القوم هم الذين يأخذون المصباح من رأسه ؛ فإذا أزيل عن رأسه وثب على حم فأكله . دُرِّبَ فدَرِبَ ، وثُقِّفَ فثَقُفَ ، وأُدِّبَ فقَبِل) . وعلى كل حال صينى ذكروه ، وإن خطّأ بعضهم قائله ، بخلاف النَّصِيبى ، فإنا لم نر أحداً كره فيما نعلم .

(١١) المستطير بالسين والطاء والراء المهملة جميعها : الكلب الهائج ؛ أى طالب السِّفاد . وأراد الناظم بالعباب : كتاب العباب الزاخر فى اللغة ، وهو كتاب ُبير يقع فى عشرين مجلداً للإمام حسن بن محمد الصَّاغانِىّ أو الصغانىّ المتوفى سنة ٦٥٠ ، بلغ فيه إلى الميم ، ووقف فى مادة بكم ، ومات قبل إتمامه ؛ ولهذا قيل :

إن الصَّغَانِيَّ الذى حازَ العُلومَ والْحِكَمْ
كَانَ قُصَارَى أَمْرِهِ أن انتهى إلى بَكَمْ

(١٢) الدِّرْصُ بتثليث الدال المهملة وسكون الراء و بعدها صاد مهملة : ولد الكلب ، وكذلك الجِرْوُ مثلّث الأول .

(١٣) السِّمْعُ بكسر السين المهملة وسكون الميم و بعدها عين مهملة ، أورده الناظم على أنه من أسماء ولد الكلب ، نقلا عن الصُّولِيّ. والذى فى مادة (س م ع) من كتب اللغة أنه سَبُعٌ مركّب ، وهو ولد الذئب من الضَّبُع ، ومن أمثالهم : (أَسْمَعُ من سِمْع) ومن السِّمْع : الأَزَلّ . قال :

تراه حديدَ الطَّرْفِ أبْلَجَ واضِحًا أغَرَّ طويلَ البَاعِ أَسْمَعَ من سِمْعِ

ثم رأيت فى مادة (خ ى ه ف ع) من اللسان أنه ولد الكلبة من الذئب نقلا عن الأزهرى ، ورأيت أيضاً فى جزء للناظم سماه « التهذيب فى أسماء الذيب » أن السِّمع بين الذئب والكلب . وأبو خالد : من كُنَى الكلب ، ذكره الناظم فى المزهر ، وقال أبو السعادات المبارك بن الأثير فى المرصّع : أبوخالد هو الكلب ، من قولك : أخلد الرجل بصاحبه إذا لزمه ، وأخلد بالمكان إذا أقام به . وهو كنية الثعلب أيضاً . انتهى .

قلت : وللكلب كنى أخرى سنَذْكرها فيما استدركناه على الناظم بعد تمام الشرح .

(١٤و١٥) فى نسختين من الأصل بإسقاط لفظة (أيضاً) من عجز البيت ، فيصير الشطر : (وكلبة قيل لها كَسَاب) ولا بد فى هذه الحالة من كسر باء كسابِ للوزن ، وهو مع هذا لا يلتئم مع الصدر ؛ لأن العروض دخلتها إحدى علل الزيادة وهى التذييل ، ودخوله فى الرجز مغتفر للمولدين . والبيت مُصَرّع ، ولا بد فى

التصريع من مطابقة الضرب للعروض فى الوزن والقافية ؛ فلهذا اضْطُرِرْنَا لزيادة (أيضا) مع التنبيه عليها فى الشرح ليَلْتَئِمَ الشطران فى الوزن . ويمكن أن يقال بإسقاطها :

ونَقَلُوا الزُّهَّادَ لِلْكِلَابِ وكلبةٌ قيل لها كَسَابِ

إلا أن احتمال سقوط لفظة من قلم الناسخ سهوا أقرب من تغيير (الزاهدون) بالزّهّاد . أما وصف الكلب بالزهد ، فقد وقفت فى مجموع على رسالة فى خصال الكلب المحمودة ، تنسب للحسن البصرى ، جاء فيها مانصه : (الخَصْلة الرابعة ، أنه إذا مات لا يكون له ميراث ، وذلك من أخلاق الزاهدين) وكنت فى ريب من أمر هذه الرسالة ، حتى رأيتها فى نفح الطيب مسوقة فى ترجمة أبى عبد الله الراعى الغرْناطِى ، وذكر أنه أوردها فى باب العَلَم من شرحه على الألفية ، منسوبة للحسن البصرى . والله أعلم .

ومن أمثالهم فى ذلك : (أَشْكَرُ من كلب) إلا أن الأكثرين على وصفه بالحرص والشره ، ومن أمثالهم فيه (أَحْرَصُ من كلب على جيفة) ومن كلب على عَرْقٍ ، والعَرْق بالفتح : العظم عليه اللحم ، أو الذى أُكل لحمه . وقالوا أيضاً (أَلأَمُ من كلب على عرق) و (أَنْهَمُ من كلب) . وكَسَابِ كقَطَام مبنيا على الكسر : الذئب ، كما فى القاموس ، وفى الصحاح والمخصص أنه اسم كلبة ، وهو الذى أراده الناظم . وقد مر بك بيت لَبيد الذى ذكر فيه كلبة تسمى بهذا الاسم . ومثله كَسْبَةُ بالفتح ، قال الأعشى :

ولَزَّ كَسْبَةَ أُخْرى فَرْعُها فَهِقُ.

(١٦) العَوْنَقُ بفتح العين المهملة وسكون الواو وفتح اللام و بعدها قاف : الكلبة الحريصة . والمعاوية الكلبة المستَحْرِمَةُ تعوى إلى الكلاب . ومن طريف

ما يحكى أن جارية بْن قُدَامَة دخل على أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان ، فقال له : ما كان أَهْوَنَك على أهلك إذ سموك جارية ! فقال : وما كان أَهْوَنَك على أهلك إذ سموك معاوية ! وهى الأنثى من الكلاب . ويروى أن شريك بن الأعور دخل عليه وكان دميما ، فقال له معاوية : إنك لدميم والجميل خير من الدميم ، وإنك لشريك وما لله شريك ، وإن أباك لأعور والصحيح خير من الأعور ، فكيف سُدْتَ قومك ؟ فقال له : إنك معاوية ، وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب ، وإنك لابن صخر والسهل خير من الصخر ، وإنك لابن حرب والسّلم خير من الحرب ، وإنك لابن أُمية ، وما أُمَيّة إلا أَمَة صُغِّرت ، فكيف صرت أمير المؤمنين ؟ !

ويشبه هذا ما رواه أبو هلال فى الصناعتين : أن رجلا من قريش قال لخالد بن صفوان : ما اسمك ؟ قال خالد بن صفوان بن الأهتم ، فقال الرجل : إن اسمك لكذب ، ما خلد أحد . وإن أباك لصفوان ، وهو حجر . وإن جدك لأهتم ، والصحيح خير من الأهتم . قال خالد : من أى قريش أنت ؟ قال : من بنى عبد الدار . قال : فمثلك يشتم تميما فى عزّها وحَسَبِها ، وقد هشمتك هاشم ، وأَمَتْك أُمَيّةُ ، وجمحت بك جمح ، وخزمتك مخزوم ، وأقصتك قصىّ ، فجعلتك عبد دارها ، وموضع شنارها ؛ تفتح لهم الأبواب إذا دخلوا ، وتغلقها إذا خرجوا ! انتهى .

واللَّعْوَة بفتح اللام وسكون العين المهملة ، واللَّعاة بفتحتين : الكلبة من غير تخصيص بشَرَهٍ وحرص ، وقال الجاحظ فى كتاب « الحيوان » : يقال أحرص من لَعْوة ، وهى الكلبة . وفى اللسان ومجمع الأمثال للميدانى : (أجوع من لَعْوة) .

(١٧) العُسْبُورَةُ بضم العين وسكون السين المهملتين وضم الباء الموحدة

وبعدها واو ساكنة وراء وهاء : ولد الكلب من الذئبة ، ويقال له : العسبور أيضاً ، ولهذا قال الناظم (وإن تزل ها لا تلم) أى إن نطقت به بدون هاء لا يلومك إنسان ، لأنه مسموع .

(١٨) الخَيْهَفَعَى بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء المثناة التحتية ، وفتح الهاء والفاء والعين المهملة مقصوراً : ولد الكلب من الذئبة . وقد سمع أيضاً بالمد . وفى اللسان : حكى الأزهرى عن أبى تراب قال : سمعت أعرابيا من بنى تميم يكنى أبا الخَيْهَفَعَى ، وسألته عن تفسير كنيته ، فقال : يقال إذا وقع الذئب على الكلبة جاءت بالسِّمْع ، وإذا وقع الكلب على الذئبة جاءت بالخيهفعى . قال : وليس هذا على أبنية أسمائهم مع اجتماع ثلاثة أحرف من حروف الحلق ، وقال عن هذا الحرف وعما قبله فى باب رباعى العين فى كتابه : وهذه حروف لا أعرفها ، ولم أجد لها أصلا فى كتب الثقات الذين أخذوا عن العرب العاربة ما أودعوا كتبهم ، ولم أذكرها وأنا أحققها ، ولكنى ذكرتها استنداراً لها وتعجباً منها ، ولا أدرى ما صحتها . انتهى .

(١٩) الدَّيْسَم بفتح الدال المهملة وسكون الياء المثناة التحتية وفتح السين المهملة وبعدها ميم : ولد الثعلب من الكلبة ، أو ولد الذئب منها . هكذا فى القاموس واللسان ، وقال الجوهرى فى الصحاح : الدَّيْسَم : ولد الدُّب ، قال : وقلت لأبى الغَوْث : يقال إنه ولد الذئب من الكلبة ، فقال : ما هو إلا ولد الدُّب . انتهى . وقال الجاحظ : إنه ولد الذئب من الكلبة ، وهو أغبر اللون ، وغبرته ممتزجة بسواد .

(٢٠) الهَرَاكِلَة بفتح الهاء والراء وكسر الكاف وفتح اللام : كلاب الماء ، وقول ابن أحمر الباهلى يصف دُرَّة :

رَأَى مِنْ دُونِهَا الْغَوَّاصُ هَوْلاً هَرَاكِلَةً وحِيتَانًا وَنُونا

فسره الأزهرى فى التهذيب بكلاب الماء . وقال الصاغانى فى العُباب : هى جمال الماء ، وقيل : هى ضخام السمك .

(٢١) القُنْدُس كقُنْفُذ ، أى بضم القاف وسكون النون وضم الدال المهملة وبعدها سين مهملة : كلب الماء . أهمله القاموس واللسان والمخصص ، وذكره شارح القاموس والدميرى فى حياة الحيوان ، ونسبا تفسيره بذلك لابن دَحْيَة . كما ذكره الناظم ، وعبارته تفيد أنه أُهمل ونُسِى .

(٢٢) القُضَاعَة بضم القاف وفتح الضاد المعجمة والعين المهملة : اسم كلبة الماء .

(٢٣) شرع الناظم فى هذا البيت وما بعده يعدد أسماء ابن آوى ، تبعاً لمن عده نوعا من الكلاب ، فذكر من أسمائه : الدَّأْل بفتح الدال المهملة وسكون الهمزة وبعدها لام . والدئل بضم فكسر ، وقد نصوا على أن لا نظير لها إلّا : رُئِم . والدُّؤُل بضمتين . والدَّأْلان محركةً ، ويقال فيه الذَّأْلان بفتح الذال المعجمة ، والذُّؤْلان بضمها ، إلا أن الهمزة فيهما ساكنة . والعِلَّوْض بكسر العين المهملة وفتح اللام المشددة ، وسكون الواو وبعدها ضاد معجمة . والنَّوْفَل بفتح النون وسكون الواو وفتح الفاء وبعدها لام . واللَّغْوَض بفتح اللام وسكون العين المهملة وفتح الواو ، وبعدها ضاد معجمة . والسُّرْحُوب بضم السين المهملة وسكون الراء وضم الحاء المهملة وبعدها واو ساكنة وباء موحدة . والوَعْ بفتح الواو وبعدها عين مهملة مشددة . والعِلَّوْش بكسر العين المهملة وفتح اللام المشددة وبعدها واو ساكنة وشين معجمة . والوَعْوَع بفتح الواوين وإسكان العين الأولى المهملة . والشَّغْبَر بفتح الشين وإسكان الغين المعجمتين ، وفتح الباء الموحدة وبعدها راء ؛ وبالزاى المعجمة تصحيف . والوَأْواء بفتح الواوين وسكون الهمزة الأولى . وكلها من أسماء ابن آوى .

هذا ما أردنا بيانه، و يتبين منه ثلاثة أمور :

الأول : أن الناظم — رحمه الله — مع استيفائه لكثير من أسماء الكلاب قد أدرج فيها بعض صفات يشترك فيها الكلاب مع غيره ، ولم نجد مع كثرة البحث نصا على أنها غلبت عليه ، حتى يمكن عدها فى أسمائه ؛ كذكره الزاهد والمنذر ، وداعى الكرم ، ومشيد الذكر ونحوها . فالظاهر أنه تسامح فى إيرادها ، أو يكون وقف فيها على مالم نقف عليه . وفوق كل ذى علم عليم .

الأمر الثانى : إيراده أربعة أعلام مشهورة للكلاب نص منها على ثلاثة ، وهى : كُسَيْبٌ وكَسابِ وكَسْبَةُ ، وسكت عن واحد وهو سُحَامٍ ، فدل بسكوته على عَدّه من أسماء الأجناس ، وكلاهما لا يبرئه من مَعَرَّة المَعَرِّى ؛ لأن جعل سُحام اسم جنس وَهَمٌ ظاهر . و إيراد ثلاثة أعلام خارج عن مقصود أبى العلاء . إلا أن يكون أوردها زيادة منه فى الفائدة . وهو أيضاً تقصير ، لاقتصاره عليها ، مع وجود ما هو أشهر منها .

الأمر الثالث : ما فاته من أسمائه ، وهو ما نريد استدراكه هنا ، و بعضه مر أثناء الشرح . فمنها :

« الدِّرْوَاسُ » بكسر أوله ، وهو الغليظ العنق من الكلاب ، وقيل الكبير الرأس منها ، وقول بعضهم :

بِتْنَا و باتَ سَقِيطُ الطلّ يَضْرِبُنَا عِنْدَ النَّدُولِ قِرَانَا نَبْحُ دِرْوَاسِ

قيل : إن أولى مايفسّر به : الكلب ، لقوله : قِرَانَا نَبْحُ دِرْوَاسِ؛ لأن النبح إنما هو فى الأصل للكلاب . وقوله: النَّدُول، يجوز أنه عنى به امرأة أو رجلا من النَّدْل وهو شبيه الوسخ ، أو عَنَى به كَلْبَةً . ورواه الجاحظ فى كتاب الحيوان : (بين

البيوت) . ودِرْوَاسٌ أيضاً : اسم كلب بعينه . والأظهر أن البيت قيل فيه ، أو فى كلب آخر يسمى بهذا الاسم .

و « الأَرْثَم » قالوا سمى بذلك لتشممه الطعام وحرصه . وقد يطلق أيضاً على الذئب .

و« العِفْرَاسُ » بالكسر ، وهو الشديد العنق الغليظُه من الكلاب ، ومثله « العَفَرْنَسُ » . و« القُلَاطُ » بالضم و « القِيلِيطُ » بالكسر كلاهما القصير المجتمع ، ويقال فيهما : القَلَطِىّ ، وقد ذكره الناظم .

« والأَغْضَفُ » ومثله « الغاضِفُ » وهو المسترخِى الأُذُن من الكلاب ، وفرق بينهما ابن الأعرابى فقال : الغاضف من الكلاب المتكسّر أعلى أُذُنه إلى مُقَدَّمِه ، والأَغْضَف إلى خلفه ، كذا فى اللسان . ثم قال : والغُضْفُ : كلاب الصيد من ذلك صفة غالبة . انتهى : وقول لبيد :

حَتَّى إِذَا يَئِسَ الرُّمَاةُ وأَرْسَلوا غُضْفاً دَوَاجِنَ قَافِلاً أَعْصَامُهَا

أراد كلاب الصيد .

و « ابن بُقَيْع » بالتصغير ذكره ابن الأثير فى المرصّع . و « ابن وَازِع وابن زَارِع وابن ذَارِع وابن ذِرَاع وابن بَوْزَع وابن عَوْلَق »

فهذه خمسة عشر اسماً للكلب فاتت الناظم .

وفاته من أسماء أولاده :

« الضَّرْوُ » بالكسر، وهو الضارى من أولاد الكلاب . ومثله « الضَّرِىّ » و « الأسبُورُ » وهو ولد الكلب من الضَّبُع ، كما فى حياة الحيوان ومجمع الأمثال ، عند تفسير قولهم : « أَسْمَع من سِمْع » .

وفاته من أسماء ابن آوى :

« البُرْعُل » بالضم ، وهو ولد الوَبْر من ابن آوى .

وفاته من أسماء الكلبة :

« اللَّعَاة » بفتحتين، وهى الكلبة الحريصة ، أوالكلبة مطلقاً من غير تخصيص.

« والبَوْزَعُ » وهى الكلبة الحريصة ، كما فى المرصّع .

وفاته من كُنَى الكلب : « أبو حاتم » . و « أبو ذِرَاع » . و « أبو قيس » و « أبو عامر » لأنه يعمر بيت صاحبه بحراسته إياه. و « أبو عِطاف » بكسر العين والتخفيف ، لأنه يعطف على أصحابه ، قال العَجّاج يصف صائداً :

ذَا أَكْلُبٍ كَالأَسْهُمِ العِطَافِ يُشْـــلِي عِطَافاً وأَبا عِطَافِ

كذا فى المرصّع . ورواية الديوان : ذَا أَكْلُبٍ نَوَاهِزٍ خِفَافِ .

ومن أمثالهم فى هذا المعنى : « آلَفُ مِنْ كَلْبٍ » .

ولهم فى وفاء الكلب وعطفه على صاحبه أقوال ونوادر كثيرة ، وربما فضلوه فى ذلك على الصاحب والخليل . وقد جمع منها ابن المرزبان جملة صالحة فى كتاب سماه : « فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب » وقفت عليه ونقلت منه فى هذه الرسالة . ومن وقف على ما كتبه الجاحظ عن الكلب فى كتاب « الحيوان » رأى عجباً عجاباً . ويذكرون من نوادر وفائه أن الربيع بن بدر كان له كلب قد رباه ، فلما مات جعل الكلب يتضرب على قبره حتى مات . ولما مات عامر بن غبرة لزمت كلابه قبره حتى ماتت عنده ، وتفرق عنه الأهل والأقارب . وقال الشعبي : خير خصلة فى الكلب أنه لا ينافق فى محبته . وأنشد القالى فى أماليه لأعرابى :

كلابُ الناس إنْ فَكَّرتَ فيهم أَضرُّ عليك من كَلْب الكلاب

لأن الكلب لا يؤذى صديقاً وأن صديق هذا فى عَذَاب

ويأتى حين يأتى فى ثياب وقد حُزمت على رجل مُصَاب
فأخزى الله أثواباً عليـــه وأخزى الله ما تحت الثياب

ومن أغرب ما رأيته ما حكاه الجرجانى فى كناياته عن محمد بن حرب قال : رأيت العَتَّابىّ ينادم كلباً، يشرب كأساً ويولغه كأساً . فكلمته فى ذلك ، فقال : إنه يكف عنى أذاه وأذى سواه ، ويشكر قليلى ، ويحفظ مبيتى ومقيلى ، فهو من بين الحيوان خليلى . قال ابن حرب : فتمنيت أن أكون كلباً لأحوز هذا النعت . انتهى . وقد ذكر ابن المرزبان هذه القصة لإبراهيم الموصلى مع الفضل ابن يحيى ببعض اختلاف . والله أعلم .

ولم يذكر الناظم من كُنَى الأنثى شيئاً وهى :

« أم عولق » و « أم ذِراع » و « أمّ الهَمَرِّش » بتشديد الميم المفتوحة كما فى المرصع : وفى القاموس واللسان : الهَمَرَّشُ اسم كلبة . و « أم يَعفور » قال فى المرصع : هى الكلبة ، وأنشد :

يا أم يَعفُورٍ سَقَاكِ العَهْدُ لاَ زَالَ من صَيْدٍ عَلَيْكِ لِبْدُ

يقول : لا زال عليك مما تصيدين لِبْدٌ من وَبَر الأرانب وغيرها . واليَعفور فى الأصل : ولد الظبية وولد البقرة الوحشية . و« أم العاويات » والعاويات أولادها .

وكذلك لم يذكر من كُنَى ابن آوى شيئاً ، وهى :

« أبو ذؤيب » . و « أبو كَعْبٍ » . و « أبو معاوية » . و « أبو أيوب » . و « أبو وائل » . والله أعلم .

أما أعلام الكلاب المشهورة التى عفوا بذكرها فكثيرة منها :

سُحَيْمٌ ، وَطِحَالٌ ، وأَكْدَرُ ، وَوَاشِقٌ ، وزُهمَانُ ، ومَيْلَعُ ، وبَرَاقِشُ ، وجَدْلاَء : كَلَبَات . والمُخْتَلِسُ ، وغَلاَّبٌ ، والقَنِيصُ ، وسَلْهَبٌ ، وسِرْحَانُ ،

المِغْنَاطِيسُ، هى خمسة أكلُبٍ كانت لرجل اسمه ذريح، وآخر اسمه أبو دُجَانَة، صيدان بها الظباء.

وقَرْحان: اسم كلب له قصة تحاميت عن ذكرها، حَبَس سيدُنا عثمان بن عفان بسببها ضَابِئَ بن الحارث البُرْجُمِيّ.

وضُمْرَان بالضم وبالفتح، وروى بهما فى قول النابغة:

فهاب ضُمْرَانُ منهُ حِينَ يُوزِعُهُ طَعْنُ المعارِكِ عِنْدَ المُحْجَرِ النَّجِدِ

هو اسم كلب.

وضَبَّار بتشديد الباء الموَحَّدَة، الذى قال فيه الحارث بن الخزرج الخفاجيّ:

سفرتْ فقلت لها هَجِرْ فتبَرْقَعَتْ فذَكَرْتُ حينَ تَبَرْقَعَتْ ضَبَّارَا
وتَزَيَّنَتْ لتروعَنِى بجمالِها فكأنَّمَا كُسِىَ الخِمَارُ خِمَارَا
نفرجْتُ أعْثُر فى قوَادِمِ جُبَّتِى لولا الحياء أطَرْتُهَا إِحْضَارَا

هو اسم كلب له، وقوله: هَجِرْ زجر للكلب. وكان لسليمان بن داود الهاشمى كلب صيد يسمى زُنْبُورًا، وفيه يقول أبو نواس:

إذا الشياطين رَأَتْ زُنْبُورَا قد قُلِّدَ الحَلْقَةَ والسُّيُورَا

من أرجوزة يقول فى آخرها:

فَأَمْتَعَ اللهُ به الأَمِيرَا رَبِّى وَلاَ زَالَ بِهِ مَسْرُورَا

ومن طرائفهم ما رواه الراغب فى محاضراته لأبى مِحْجَن، فى رجل اسمه: وَثَّاب واسم كلبه: عمرو، ورواها فى موضع آخر من هذا الكتاب لابن أبى عتيق، باختلاف فى الرواية.

وَلَوْ هَيَّا لَهُ اللهُ من التوفيق أَسْبَابا
لَسَمَّى نَفْسَهُ عَمْرًا وَسَمَّى الكَلْبَ وَثَّابا

قلت : تذكرت بهذين البيتين قصة ظالم ، لما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يريد الإسلام ، وكان معه كلب له اسمه : راشد ، فسأله عليه السلام عن اسمه واسم كلبه ، فلما أخبره ضحك عليه السلام ، وقال : اسمك راشد واسم كلبك ظالم . وفى رواية أنه كان يسمى غاوى بن ظالم ، فسماه عليه السلام راشد بن عبد الله . وسبب إسلامه أنه كان سادنا لصنم اسمه سواع ، فرأى يوما ثعلباً يعدو عليه ببوله ، فكسره ، وقال فيه :

أَرَبٌّ يبول الثُّعْلُبَانُ برأْسِهِ لقد ذَلَّ من بالَتْ عَلَيه الثَّعَالِبُ

وفى القصة ، ورواية هذا البيت ونسبته لراشد ، اختلاف ليس هذا محل ذكره .

وكان لميمونة أم المؤمنين رضى الله عنها كلب اسمه مِسْمَارٌ . قال صاحب القاموس : إنه مرض ، فقالت : وارَحْمَتَا لِمِسْمَار . وفى كتاب « فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب » لابن المَرْزُبَان ، أنها رضى الله عنها كانت إذا حجّت خرجت به معها ؛ فليس يطمع أحد فى القرب من رَحلها مع مسمار ، فإذا رجعت جعلته فى بنى جَدِيلَةَ ، وأنفقَتْ عليه ، فلما مات قيل لها : مات مسمار ، فبكت وقالت : فُجِعْتُ بمسمار .

وفى هذا القدر كفاية فقد كدنا نخرج عن المقصود . ولولا خوف الإطالة لذكرت أيضاً ما ورد من أمثالهم فى الكلب ، وهى كثيرة تربو على خمسة وخمسين مثلا ، على أن ماذكرناه وإن طال فلا يخلو من فائدة ، وفى التنقُّل جِمَام للأنفس .

رَجْعٌ إلى أَبِي ٱلْعَلاَء

وعلى الجملة فلا يختلف اثنان فى علمه وفضله ، ووقوفه على دقائق العربية ، ولا عبرة بمن لحّنه فى قوله :

يذيبُ الرعبُ منه كلَّ عَضْبٍ فلولا الغِمْـــدُ يمسِكُهُ لَسَالاَ

بأن مذهب الجمهور وجوب حذف الخبر بعد لولا ، بناء على أنه لا يكون إلا كونا مطلقا ، فإذا أريد الكون المقيد جعل مبتدأ ، فكان عليه أن يقول : فلولا مسالك الغمد إياه لسال ، أى موجود ؛ وأما التركيب الذى أتى به فتركيب فاسد . انتهى .

قلت : وهذا المخَطِّئُ هو المخْطِئُ لاحتمال تقدير يمسكه جملة معترضة بين المبتدإ والجواب والخبر محذوف ، أو تقدير يمسكه بدل اشتمال على أن الأصل أن يمسكه ، ثم حذفت أَنْ وارتفع الفعل ، وعلى هذا فالخبر محذوف أيضاً . والمعنى : فلولا الغمد إمساكه موجود لسال . انتهى ملخصا من المغنى وحواشيه . هـذا إذا خرجنا البيت على مذهب الجمهور الذى تمسك به المعترض ، والمذهب الحق ما ذهب إليه ابن مالك والرمّانى وابن الشجرى والشلوبين ؛ بأن الخبر إذا كان كونا مقيداً ، ولم يدل عليه دليل ، وجب ذكره ، وإن دل عليه دليل جاز إثباته وحذفه . وعليه فلا وجه للتخطئة فى البيت ، فضلا عن ورود مثله فى الكلام الموثوق به .

وأما ذكاؤه وسرعة فهمه وقوة حافظته ؛ فقد رووا فيها غرائب ، منها ماينبو العقلُ عن تصديقه . وقد صرح صاحب معاهد التنصيص بأن للناس فى ذلك حكايات مشهورة يضعونهـا ، وغالبها مستحيل . إلا أن اشتراط استيفاء أخباره يقضى بذكر ما وقفنا عليه منها ، وعلى القارئ تمييز الغثّ من السمين .

فمن ذلك : مانقل عن تلميذه التبريزى أنه كان قاعداً بين يديه فى مسجد بمعرة

النعمان يقرأ عليه شيئاً من تصانيفه . قال : وكنت أقمت عدة سنين لم أر أحداً من أهل بلدى ، فدخل المسجد بعض جيراننا للصلاة ، فرأيته وعرفته ، فتغيرت من الفرح ، فقال لى أبو العلاء : أى شىء أصابك ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فقال : قم وكلمه ، فقلت : حتى أتم النسق ، فقال : قم وأنا أنتظرك ، فقمت وكلمته بلسان الأَذْرَبِيَّة شيئاً كثيراً ، إلى أن سألت عن كل مابدا لى . فلما رجعت إليه قال لى : أى لسان هذا ؟ قلت : هذا لسان أهل أَذْرَبِيجَانَ . فقال لى : ما عرفت اللسان ولا فهمته ، غير أنى حفظت ما قلتما ، ثم أعاد على اللفظ بعينه من غير أن ينقص منه أو يزيد ، فتعجبت غاية العجب ، كيف يحفظ مالم يفهمه .

ومنه : مارواه بعض طلبته ، أن جاراً له أعجميا غاب عن المعرة ، وحضر رجل من بلده يبحث عنه ، فوجده غائبا ، ولم يمكنه المقام ، فأشار عليه أبو العلاء أن يذكر حاجته ، فجعل الرجل يتكلم بالفارسية وأبو العلاء مصغٍ إليه ، ولم يكن يعرفها ، إلى أن فرغ من كلامه ، ومضى الرجل . وقدم جاره الغائب ، فجعل أبو العلاء يردد عليه ما سمعه بلفظه ، والرجل يبكى و يستغيث ويَلْطِمُ ، إلى أن فرغ من الحديث . وسئل عن حاله ، فأَخْبَرَ أنه أُخبِر بموت أبيه و إخوته وجماعة من أهله .

وهذه الحكاية حكاها الوطواط فى « الغرر والعرر » على غير هذا الوجه . قال : ومن عجيب حكاياته أن أبا زكريا التبريزى كان يقرأ عليه فأتاه رسول من عند أهله من تبريز ، فجاء حَلْقة أبى العلاء ، فسأل عنه ، فأخبر أنه غائب فى بعض شأنه . فقال له أبو العلاء : ما تريد به ؟ قال : جئت برسالة من عند أهله . فقال : هاتها حتى نوصلها إليه ، قال : إنها مشافهة ، قال : فأسمعناها حتى نوصلها إليه . قال : إنها بالفارسية . قال : لا عليك أن تسمعناها ولا تسقط منها حرفا . فأوردها عليه . فلما جاء التبريزى أُخبر أن رجلا جاء من تبريز ومعه رسالة

من أهله ، فقال : ليتكم أخذتموها منه ، فإنى مشوق لما يرد من أخبارهم . فقيل له : إنه قال إنها مشافهة . فتأسف لذلك . فلما رأى أبو العلاء تأسفه ، قال له : لا عليك ، إنى سمعتها منه وحفظتها . ثم أملاها عليه . فجعل التبريزى يضحك مرة ، ويبكى مرة ، فسأله أبو العلاء عن ضحكه وبكائه ، فقال : تارة تخبرنى بما يسرنى فأضحك ، وتارة تخبرنى بما يحزننى فأبكى . انتهى .

ومنه : ماحكاه الأمير أسامة بن مُنْقِذ ، قال : كان بأنطاكية خزانة كتب ، وكان الخازن بها رجلا عَلَوِيًّا ، فجلستُ يوما عنده ، فقال لى : قد خبأت لك خبيئة لم تسمع بمثلها فى تاريخ . فقلت : وما هى ؟ قال : صبى دون البلوغ ضرير يتردد إلىّ ، وقد حفّظته فى أيام قلائل عدة كتب ، وذلك أنى أقرأ عليه الكراسة والكراستين مرة واحدة ، فلا يستعيد إلا ماشك فيه ، ثم يتلو علىّ ماسمعه . قلت : فلعله يكون محفوظا له ! فقال : سبحان الله ! كل كتاب فى الدنيا يكون محفوظا له ، ولئن كان كذلك فهو أعظم . ثم حضر المشار إليه ، وهو صبى دميم الخلقة ، مجدّر الوجه ، على عينيه بياض من أثر الجدرىّ ، كأنه ينظر بإحدى عينيه ، وهو يتوقد ذكاء ؛ يقوده رجل طويل أحسبه من أقاربه . فقال له الخازن : ياولدى ، هذا السيد رجل كبير القدر ، وقد وصفتك له ، وهو يحب أن تحفظ اليوم مايختاره لك ، فقال : سمعا وطاعة ، فليختر مايريد . قال ابن منقذ : فاخترت شيئاً وقرأته عليه وهو يموج ويستزيد ، فإذا مر بشىء يحتاج إلى تقريره فى خاطره ، يقول : أعد هذا ، فأعيده عليه ، حتى أتيت على مايزيد على كراسة ، ثم قلت : يُقنع هذا من قبل نفسى . قال : أجل حرسك الله . وتَلَا علىّ ما أمليته عليه ، وأنا أعارضه بالكتاب حرفا حرفا ، فكاد عقلى يذهب لما رأيت منه ، وعلمت أن ليس فى العالم من يقدر على ذلك إلا إن شاء الله . وسألت عنه ،

فقيل لى : هذا أبو العلاء المعرى من بيت العلم والقضاء والثروة والغنى . هكذا يروون هذه الحكاية ، والأمير أسامة المذكور ولد سنة ٤٨٨ أى بعد موت أبى العلاء بنحو تسع وثلاثين سنة ، فالقصة على هذا موضوعة ، اللهم إلا أن تكون وقعت مع بعض أمراء بنى منقذ ، ممن تقدم أسامة .

ومنه : أن سَمَّاناً حاسب عميلا له برقاع كان يثبت فيها ما يأخذه منه عند حاجته ، وكان أبو العلاء فى غرفة يسمع محاسبتهما ، و بعد مدة ضاعت الرقاع من السَّمان ، فأخذ يتململ ويتأذى . و بلغ أبا العلاء خبره ، فقال له : ما عليك من بأس ، أنا أملى عليك حسابه . وجعل يمليه عليه على ما فى الرقاع رقعة رقعة ، والسَّمان يكتبها . ثم وجد بعد ذلك رقاعه ، فإذا هى مطابقة لما أملاه أبو العلاء . وهذا إن صح ، فهو غاية الغايات فى قوة الحفظ والتعليق .

وقريب مما تقدم ، ما روى عن أبى تمام حين سمع البحترى ينشد قصيدته التى أولها :

أَأفاق صبٌّ من هوًى فأُفيقا أم خان عهداً أم أطاع شفيقا

فلما فرغ من إنشادها ، أقبل عليه باللوم والتقريع ، واتهمه بسرقة شعره ، ثم اندفع يعيد القصيدة حتى أتى على أكثرها . والقصة مشهورة . ومثله ما روى عن المتنبى فى حفظه كتاباً عرض عليه للبيع فى نحو ثلاثين ورقة . ورَوَى مثله الإمام أبو العباس المبرّد ، وهو الثقة فيما ينقل ، فذكر فى كامله أن ابن عباس رضى الله عنه لما أنشده عمر بن أبى ربيعة كلمته : (أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أنت غادٍ فَمُبْكِرُ) ، ولم يكن سمعها من قبل ، استظهرها من مرة واحدة ، وأعادها على الحضور . إلا أن ما نقل عن المعرّى يفوق كل ذلك .

وذكروا أن أبا نصر أحمد بن يوسف المنازى ، دخل على أبى العلاء وهو

بالشام فى جماعة من أهل الأدب ، وأنشده قوله :

وقَائَا لَفْحَةَ الرَّمْضَاء وَادٍ ... سقاه مُضَاعَفُ الغَيْثِ العَمِيمِ
نزلنا دوحه[1] فحنا علينا ... حنو المرضعات[2] على الفطيم
وأرشفنا[3] على ظمأ زلالا ... ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا ... فيحجبها ويأذن للنسيم
تروع حصاه حالِيَةَ العذارى ... فتلمس جانب العقد النظيم

فقال أبو العلاء : أنت أشعر مَنْ بالشام . ثم رحل أبو العلاء إلى بغداد ، فدخل عليه المنازى فى جماعة من أدبائها ، وهو لا يعرف منهم أحداً ، فأنشدوه من أشعارهم ، وأنشده المنازى :

لقد عرض الحمام لنا بسجع ... إذا أصغى له ركب تلاحى
شجى قلب الخلىّ فقيل : غنّى ... وبرّح بالشجىّ فقيل : ناحا
وكم للشوق فى أحشاء صب ... إذا اندملت أجَدّ لها جراحا
ضعيف الصبر عنك وإن تقاوى ... وسكران الفؤاد وإن تَصاحا
كذاك بنو الهوى سَكْرَى صُحَاةً ... كأحداق المَهَا مَرْضَى صِحَاحَا

فقال أبو العلاء : ومن بالعراق ! عطفاً على قوله : من بالشام . والراجح عندى أن هذه القصة موضوعة ، لا لغرابتها ، فإن فيما تقدم فى قصته مع السَّمَّان وغيره ما هو أغرب وأعجب ، ولا يبعد على من يستظهر أوراق الحساب رقعة رقعة ، أن يسمع صوت المنازى ونغمته فى إنشاده ، فيعيه ويعرفه بعد ذلك من كلامه ؛ بل لأن الثابت فى الأبيات الميمية أنها لحمدونة[4] بنت زياد الأندلسية ، أثبت

---

(١) ويروى : تظل غصونه تحنو علينا .
(٢) ويروى : الوالدات .
(٣) ويروى : وأسقانا .
(٤) ورد اسمها فى بعض التواريخ : حمدة ، وفى بعضها : حميدة ، وفى بعضها : حمدونة .

ذلك مؤرخو الأندلس ، وجزم به أبو جعفر الرعيني الأندلسي ، وهو من الراحلين إلى المشرق . وملخص ما قاله في شرحه على بديعية صاحبه ابن جابر : أن بعض المشارقة غرهم بُعدُ ديارها ، وخلوّ بلادهم من آثارها ، فانتحلوا أشياء من شعرها . ومن ذلك نسبتهم أبياتها الميمية المنازى من شعرائهم . قال : وقد رأيت بعض المؤرخين من أهل بلادنا أثبتوها لها قبل أن يخرج المنازى من العدم إلى الوجود ، ويتصف بلفظة الموجود . انتهى . أما الأبيات الحائية فالراجح أنها للمنازى ، ونسبها الصفدي في شرحه على لامية العجم لابن قاضي مِيلَة . والله أعلم .

وقال كمال الدين بن العديم في تاريخ حلب : بلغني أن المنازى عمل هذه الأبيات ليعرضها على أبي العلاء ، فلما وصل إليه أنشده إياها ، فجعل كلما أنشده المصراع الأول من كل بيت ، سبقه أبو العلاء إلى المصراع الثاني الذي هو تمام البيت كما نظمه . ولما أنشده : (نزلنا دَوْحَةً فحنا علينا) قال أبو العلاء : (حنو الوالدات على الفطيم) فقال المنازى : إنما قلت على اليتيم . فقال أبو العلاء : الفطيم أحسن . انتهى والله أعلم .

قلت : الشيء بالشيء يذكر ، والحديث ذو شجون . والذي ذكره ابن العديم له نظائر . منها ما رواه طيفور في تاريخ بغداد عن عمارة بن عقيل . قال : أنشدت المأمون قصيدة فيها مديح له تبلغ مائة بيت ، فابتدأت بصدر البيت فبادرني إلى قافيته ، فقلت : والله يا أمير المؤمنين ما سمعها منّي أَحَدٌ قط . قال : هكذا ينبغي أن يكون ، ثم أقبل عليّ ، فقال : أما بلغك أن عمر بن أبي ربيعة أنشد عبد الله ابن عباس قصيدته التي يقول فيها :

* تشُطُّ غداً دارُ جيراننا *

فقال ابن عباس :

* ولَلدَّار بعد غدٍ أَبْعَدُ *

ثم قال للمأمون : أنا ابن ذاك . وفى « تحرير التحبير » لابن أبى الإصبع أن ابن عباس لما كمل البيت ، قال له ابن أبى ربيعة : هكذا والله قلت . فقال عبد الله : وهكذا يكون .

ورُوى أن جريراً والفرزدق حضرا مجلس الوليد بن عبد الملك ، وعَدِىّ بن الرِّقاع ينشد قصيدته :

عَرَفَ الدِّيَارَ توهّما فاعتادها من بعد ما درس البِلَى أبلادَها

فلما انتهى إلى قوله : تُزْجِى أَغَنَّ كأنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ

تشاغل الوليد عن الاستماع ، وقطع عَدِىّ الإنشاد ، فقال الفرزدق لجرير : ما تراه يقول ؟ فقال : أراه يستلب بها مثلا ، فقال الفرزدق : يا لُكَع ! إنه سيقول : قَلَمٌ أصاب من الدواة مِدَادَها . ثم عاد الوليد إلى الاستماع ، وعاد عدى إلى الإنشاد ، فنطق بالعجُز كما قال . فقال جرير للفرزدق : ويحك ! فكأن سمعك مخبوء تحت لسانه ، فقال له : اسكت ، شغلنى سبْك عن جيد الكلام ، والله لما سمعت صدر بيته رحِمتُه ، فلما أنشد عجزه انقلبت الرحمة حسدا . وفى رواية العقد الفريد عن الأصمعى أن جريراً هو السابق لعجز البيت لا الفرزدق . وقال زكى الدين بن أبى الإصبع فى « تحرير التحبير » : الذى أقوله : إن بين ابن عباس وبين الفرزدق فى استخراجهما العجزين كما بينهما فى مطلق الفضل ، وفضل ابن عباس رضى الله عنهما معلوم ، وأنا أذكر الفرق . فإن بيت عَدِىّ بن الرِّقاع من جملة قصيدة تقدم سماع معظمها ، وعلم أنها دالية مردفة بألف موصولة مخرجة بألف منصوبة الرويّ من وزن معروف ، ثم تقدم فى صدر البيت ذكر ظبية تسوق خِشْفاً لها ، قد أخذ الشاعر فى تشبيه طرف قرنه مع العِلم بسواده ، وفى ذلك مايدل على عجز البيت بحيث

يسبق إليه من هو دون الفرزدق من حُذّاق الشعراء . وبيت عمر مفرد لم تعلم قافيته من أى ضرب هى من القوافى ، ولا رويّه من أى الحروف ، ولا حركة رويّه من أى الحركات ، فاستخراج عجزه ارتجالا فى غاية العسر ، ونهاية الصعوبة ، لولا ما أمد الله به هؤلاء القوم من المواد التى فضلوا بها عن غيرهم . ومن حذق عبد الله ابن العباس رضى الله عنهما ، ودقيق معرفته باختيار الكلام ، جَعْله قافية الذى أتى به (أَبْعَدَ) ولم يجعلها (أَنْزَحُ) وكان ذلك ممكناً له ، لكون (أبعد) أسرع ولوجاً فى السمع ، وأسبق إلى الذهن ، وأدخل فى القلب ، وأكثر استعمالا ، وأعرف عند الكافة ، وبها جاء القرآن العزيز دون أنزح ، وهى أحب إلى اللسان ، وأولى بالبيان . انتهى كلامه بنصه .

وقد عَنّ لى أن أورد هنا قصيدة عَدِىّ بن الرّقاع ، لأنها لا توجد برمتها فى كتب الأدب المتداولة فى الأيدى ، مع تشوق كثير من الأدباء للوقوف عليها .

قال عَدِىّ بْنُ الرّقاع يمدح الوليد بن عبد الملك أحد الخلفاء من بنى أمية :

عَرَفَ الدِّيار توَهُّماً فاعْتَادَهَا (١) ... من بَعْدِ ما دَرَسَ البِلَى أَبْلَادَهَا

إلاّ رَوَاسِىَ كُلُّهُنّ قَدِ اصْطَلَى ... جَمْراً وَأَشْعَلَ أَهلُها إِيقَادَهَا (٢)

كَانَتْ رَوَاحِلَ للقُدُور فَعُرِّيَتْ ... مِنْهُنّ واسْتَلَبَ الزّمَانُ رَمَادَهَا

وَتَنَكَّرَتْ كلّ التّنَكُّر بَعْدَنَا ... والأرضُ تعرِفُ بَعْلَهَا (٣) وَجَمَادَهَا

ولَرُبَّ واضِحَةِ الجَبِينِ خَرِيدةٍ ... بَيْضَاءَ قَدْ ضَرَبَتْ بِهِ أَوْتَادَهَا (٤)

---

(١) اعتادها : أعاد النظر إليها مرة بعد أخرى لدروسها حتى عرفها ، والرواية فى الأغانى واللسان : شمل بدل درس . والأبلاد : جمع بلد وهو الأثر .

(٢) رواية الأغانى : رواكد ، بدل : رواسى ، و : حمراء أشعل ، بدل : جمراً وأشعل .

(٣) البعل : الأرض المرتفعة التى لا يصيبها مطر إلا مرة واحدة فى السنة ، والجماد : اليابسة التى لم يصبها مطر ولا شىء فيها .

(٤) رواية الأغانى :

ولرب واضحة العوارض طفلة ... كالريم قد ضربت به أوتادها

تَصْطَادُ بَهْجَتُهَا المُعَلَّلَ بالصِّبَا ... عَرَضًا فَتُقْصِدُهُ وَلَنْ يَتَصَيَّدَهَا (١)

كالظَّبْيَةِ البِكْرِ الفَرِيدَةِ تَرْتَعِي ... مِنْ أَرْضِهَا قُفَّاتِهَا وَعِهَادَهَا

خَصِبَتْ بِهَا عَقَدُ البَرَاقِ حَنِينُهَا ... عن عَكْرِهَا عَلَجَانُهَا وَعَرَادَهَا

كالزَّيْنِ فى وَجْهِ العَرُوسِ تَبَدَّلَتْ ... بعد الحياء فلاعبت أَزْءَادَهَا (٢)

تُزْجِى أَغَنَّ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ ... قَلَمٌ أَصَابَ من الدَّوَاةِ مِدَادَهَا (٣)

رَكِبَتْ به من عَالِجٍ مُتَحَيِّرًا ... قَفْرًا تُرِيبُ وَحْشُهُ أَوْلَادَهَا

فَتَرَى مَحَانِيَهُ التى تَسِقُ الثَّرَى ... والهَبْرَ يُونِقُ نَبْتُهَا رُوَّادَهَا (٤)

بانَتْ سعادُ وَأَخْلَفَتْ مِيعَادَهَا ... وَتَبَاعَدَتْ عَنَّا لتَمْنَعَ زَادَهَا

إِنِّى إِذَا ما لم تَصِلْنِى خُلَّتِى ... وتباعَدَتْ عَنِّى اغتفَرْتُ بِعَادَهَا (٥)

إِمَّا تَرَىْ شَيْبِى تَقَشَّعَ لِمَّتِى ... حتى عَلَا وَضَحٌ يَلُوحُ سَوَادَهَا (٦)

فلقَدْ ثَنَيْتُ يدَ الفَتَاةِ وِسَادَةً ... لِى جاعلا يُسْرَى يدَىَّ وِسَادَهَا

وأُصَاحِبُ الجَيْشَ العَرَمْرَمَ فارِسًا ... فى الخَيْلِ أَشْهَدُ كَرَّهَا وطِرَادَهَا

وقصيدةٍ قد بتُّ أَجْمَعُ بَيْنَهَا ... حتى أُقَوِّمَ مَيْلَهَا وسِنَادَهَا

نَظَرَ المُثَقِّفِ فى كُعُوبِ قَنَاتِهِ ... حتى يُقِيمَ ثِقَافُهُ مُنْآدَهَا

فَسَتَرْتُ عيبَ معيشَتِى بتَكَرُّمٍ ... وأَتَيْتُ فى سَعَةِ النَّعِيمِ سَدَادَهَا

وعلِمْتُ حَتَّى ما أُسَائِلُ واحدا ... عن عِلْمِ وَاحِدَةٍ لكى أَزْدَادَهَا

---

(١) المعلل بالصبا : المشغول به المتلهى ، وأقصده : رماه بسهم فقتله .

(٢) الأزءاد : جمع رئد بالكسر ، وهو الترب ، وأكثر ما يكون فى الإناث .

(٣) الروق : القرن .

(٤) تسق تجمع ، والمراد تكرم نباتها . والهبر : المطمئن من الأرض ، وقد ضبط فى لسان. مرب : نبتها بالنصب وروادها بالرفع ، والصواب العكس .

(٥) الخلة بالضم : الخليل ، يستوى فيه المذكر والمؤنث ؛ لانه فى الأصل مصدر .

(٦) لاحه : غيّره .

صلى الإله على امرئٍ ودَّعْتُه ... وأتمَّ نِعْمَتَه عليه وزادَها

وإذا الرَّبيعُ تتابعَتْ أنواؤُه ... فسقى خُناصِرةَ الأحصِّ فجادَها[1]

نزلَ الوليدُ بها فكانَ لأهلِها ... غَيْثًا أغاثَ أنيسَها وبلادَها

أوَ لا ترَى أنَّ البريَّةَ كلَّها ... ألقتْ خزائمَها إليه فقادَها

ولقد أراكَ اللهُ إذْ ولّاكَها ... مِنْ أُمَّةٍ إصلاحَها ورَشادَها[2]

وعمرْتَ أرضَ المُسلمينَ فأقبلَتْ ... ونفَيْتَ عنها مَنْ يُريدُ فسادَها[3]

وأصبْتَ في بلدِ العدوِّ مُصيبةً ... بلغتْ أقاصيَ غوْرِها ونِجادَها

ظفراً ونصرًا ما تناوَلَ مِثْلَهُ ... أحدٌ من الخُلفاءِ كانَ أرادَها

وإذا نَشَرْتَ له الثَّناءَ وجدْتَهُ ... جَمعَ المكارمَ طِرْفَها وتِلادَها[4]

غلَبَ المَسامِيحَ الوليدُ سماحةً ... وكفى قُرَيْشَ المُعْضِلاتِ وسادَها

تأْتيه أسلابُ الأعِزَّةِ عَنْوةً ... قَسْرًا ويَجْمَعُ للحُروبِ عَتادَها[5]

وإذا رأَى نارَ العدوِّ تضرَّمَتْ ... سامَى جَماعةَ أهلِها فاقْتادَها

بعَرَمْرَمٍ تبدُو الرَّوابي ذي وَعًى ... كالحرَّةِ احتملِ الضُّحَى أطْوادَها[6]

أطْفأْتَ نارًا للحروبِ وأُوقِدَتْ ... نارٌ قدحتَ براحتيكَ زِنادَها

فبدتْ بَصيرَتُها لِمَنْ يَبْغِي الهُدَى ... وأصابَ حَرُّ شَديدِها حُسَّادَها

وإذا غَدَا يومًا بنَفْحَةِ نائلٍ ... عرَضَتْ له الغدَ مثلُها فأعادَها

---

(١) خناصرة : بليدة من أعمال حلب ، وهى قصبة كورة الأحص .

(٢) رواية العقد الفريد والأغانى : ولقد أراد الله .

(٣) رواية الأغانى : وكففت ، بدل : ونفيت .

(٤) الطرف والطريف والطارف : المال المستفاد . والتلاد : القديم الأصلىّ .

(٥) العتاد بالفتح : العدة والأهبة ، ورواية العقد الفريد :

لم تأته الأسلاب إلا عنوة ... غصبا ويجمع للحروب عتادها

(٦) الوعى بالمهملة : الجلبة ، والحرة بالفتح : الأرض الصلبة الغليظة ، والمعنى : أن الآل الذى يكون فى الضحى رفع جبالها ، فان رآها الناظر رأى أنها قد طالت وعظمت .

وإذا عَـدَت خيلٌ تُبَادِرُ غاية فالسابق الجـالى يقودُ جِيَادَها[1]

تمت القصيدة . ويروى أن عَدِيًّا أنشدها الوليدَ وعنده كُثَيِّر، وكان قد بلغه عن عدى أنه يطعن على شعره ، ويقول : هذا شعر حجازى مقرور ، إذا أصابه قُرُّ الشام جمد وهلك . فلما أتى عدى على قوله :

وقصيدةٍ قد بتُّ أَجمعُ بينَها حتى أقوِّمَ ميلَهَا وسِنَادَها

قال له كثير : لو كنت مطبوعاً أوفصيحاً أو عالماً، لم تأت فيها بميل ولا سناد ، فتحتاج إلى أن تقومها . ثم أنشد :

نَظَرَ المثقِّفِ فى كُعُوب قَنَاتِه حتى يُقِيمَ ثِقَافُهُ مُنْآدَها

فقال كثير : لا جرم أن الأيام إذا تطاولت عليها عادت عوجاء ، ولأن تكون مستقيمة لا تحتاج إلى ثقاف أجود لها . ثم أنشد :

وعَلِمْتُ حَتَّى ما أُسَائِلُ وَاحِدا عن علم وَاحِدَةٍ لكىْ أَزْدَادَها

فقال كثير : كذبت وربِّ البيت الحرام ، فليمتحنك أمير المؤمنين بأن يسألك عن صغار الأمور دون كبارها حتى يتبين جهلك ، وما كنتَ قط أحمق منك الآن حيث تظن هذا بنفسك . فضحك الوليد ومَنْ حضر ، وقُطِعَ عَدِىّ ابن الرِّقاع حتى ما نطق .

وروى عن محمد بن المنجِّم أنه قال : ما ذُكر لى أحـد فأحببت أن أراه ، فإذا رأيته أمرت بصفعه ؛ إلا عدى بن الرِّقاع ، لقوله :

وعلمت حتى ما أسائل ... البيت . فـكنت أعرض عليـه أصناف العلوم فكلما مر به شىء ، ولا يحسنه ، أمرت بصفعه .

---

(١) فى الأصل : وإذا عدت خيلا يبادر غاية .

فصل فى مؤلفاته

قال أبو العلاء : لزمت مسكنى منذ سنة أربعمائة ، واجتهدت على أن أتوفر على تسبيح الله وتحميده ، إلى أن أضطر إلى غير ذلك ، فأمليت أشياء ، وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله بن أبى هاشم ، أحسن الله معونته ، فألزمنى بذلك حقوقاً جمة وأيادى بيضاء ، لأنه أفنى فِىَّ زمنه ، ولم يأخذ عما صنع ثمنه ، والله يحسن له الجزاء ، ويكفيه حوادث الزمن والأرزاء . انتهى .

وقد رتبنا أسماء هـذه الـكتب على حروف المعجم ، تسهيلا على المطالع ! واعتمدنا فيما ذكرناه منها على ما فى « إرشاد الأريب » لياقوت ، و « كشف الظنون » لمصطفى بن عبد الله الشهير بكاتب چلبى ، وغيرهما من كتب التراجم والأخبار . وتكلمنا على ما وقفنا عليه منها بما يتسع له هذا المختصر :

(١) أدب العصفورين : رسالة ذكرها ياقوت ، وصاحب كشف الظنون .

(٢) استغفر واستغفرى : كتاب فى المنظوم ، به نحو عشرة آلاف بيت ، ويقع فى مائة وعشرين كراسة ، ذكره ياقوت ، وأهمله صاحب الـكشف .

(٣) إسعاف الصديق : فى ثلاثة أجزاء ، يتعلق بكتاب الجمل فى النحو للزجّاجى المتوفى سنة ٣٣٩ . ذكره ياقوت ، وصاحب الـكشف .

(٤) إقليد الغايات : كتاب لطيف ، قصره على تفسير ما جاء من اللغز فى كتابه : الفصول والغايات ، ذكره ياقوت ، وصاحب الـكشف .

(٥) الأمالى : لم يذكره ياقوت ، وقال صاحب الـكشف : هو مائة كراسة ولم يكمله .

(٦) الأيك والغصون : ذكره ياقوت وصاحب الكشف فى حرف الكاف فى الكتب ، ويسمى أيضاً بالهمزة والردف ؛ لأنه بناه على إحدى عشرة حالة للهمزة فى حال إفرادها وإضافتها . مثاله : سماء بالرفع والنصب والخفض ، سماء بالتنوين ، سماؤه سماءه سمائه بالحركات الثلاث مع الإضافة للضمير المذكر ، سماؤها سماءها سمائها بها مع الإضافة للمؤنث ، ثم همزة بعدها هاء ساكنة مثل : عباءة وملاءة . فإذا ضربت الإحدى عشرة فى حروف المعجم الثمانية والعشرين ، خرج من ذلك ثلاثمائة فصل وثمانية ، وهى مستوفاة فى هذا الكتاب . وذكر فيه أيضاً الأرداف الأربعة بعد ذكر الألف . ومبناه على العظات وذم الدنيا . ومقداره ألف ومائتا كراسة ، تقع فى اثنين وتسعين جزءاً كما ذكر ياقوت . وقال ابن خلكان : بلغنى أن له كتاباً سماه الأيك والغصون وهو المعروف بالهمزة والردف ، يقارب المائة جزء ، فى الأدب ؛ وحكى لى من وقف على المجلد الأول بعد المائة ، فقال : لا أعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد .

(٧) بحر الزجر : يتعلق بكتاب « زجر النابح » ، ذكره ياقوت ، ولم يذكر فى كشف الظنون .

(٨) تاج الحرة فى عظات النساء خاصة ، وتختلف فصوله ، فمنها ما يجىء بعد حرفه الذى يثبت ثبات الروى ياء التأنيث ، كقوله : شائى وتشائى وتسائى ونحوها . ومنه ما هو مبنى على الكاف نحو غلامك وكلامك . ومنها ما يجىء على تفعلين ، مثل ترغبين وتذهبين ، وأنواع هذا الكتاب كثيرة ، ويقع فى أربعمائة كراسة ، كما فى ياقوت وكشف الظنون .

(٩) تضمين الآى : لم يذكره صاحب كشف الظنون ، وقال ياقوت : هو كتاب مختلف الفصول ؛ فمنه طائفة على حروف المعجم ، وقبل الحرف المعتمد

ألف ، مثل أن يقال فى الهمزة : بناء ونساء ، وفى الباء : ثياب وعباب . ثم على هذا إلى آخر الحروف . ومنه فصول على فاعلين وعلى فاعلون وغير ذلك . والغرض أن يأتى بعد انقضاء الكلام بآية من الكتاب العزيز أو بعض آية ، وربما يجىء بآيتين . قال : والسبب فى تأليفه أن بعض الأمراء سأله أن يؤلف كتاباً برسمه ، ولم يؤثر أن يؤلف شيئاً فى غير العظات ، والحث على تقوى الله ، فأملى هذا الكتاب ، ويقع فى أربعمائة كراسة .

(١٠) تعليق الجليس : مما يتصل بكتاب الجمل للزجّاجى ، فى جزء واحد . ذكره ياقوت ، ولم يذكر فى الكشف .

(١١) تفسير خطبة الفصيح : فسّر فيه غريب كتابه خطبة الفصيح . ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف .

(١٢) تفسير الهمزة والردف : فى جزء ، ذكره ياقوت ولم يذكر فى الكشف .

(١٣) جامع الأوزان : فيه شعر منظوم على معنى يعم به الأوزان الخمسة عشر التى ذكرها الخليل ، بجميع ضروبها ، ويذكر قوافى كل ضرب ، به تسعة آلاف بيت ، ومقداره ستون كراسة فى ثلاثة أجزاء . ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف .

(١٤) الجلى والحلبى : هكذا ورد فى نسخة ياقوت ، وكتب مصححه : لعله « الحلى الحلبى » ، سأله فيه صديق له من أهل حلب ، يعرف بابن الحلى ، مجلد واحد ، وعشرون كراسة . ولم يذكر فى كشف الظنون .

(١٥) الحقير النافع : مختصر فى النحو . خمس كراسات ، كما فى ياقوت والكشف ، وذكره السيوطى فى بغية الوعاة .

(١٦) خادم الرسائل : فى تفسير ماتضمنته رسائله من الغريب ، سواء كانت

من الرسائل الطوال ، كالغفران والملائكة ونحوها ؛ أو ما دونها . ولم يذكر فيه إلا ما يحتاج إليه المبتدئون فى الأدب ، وسماه صاحب كشف الظنون : خادمة الرسائل .

(١٧) خطبة الفصيح : تكلم فيه عن أبواب الفصيح فى خمس عشرة كراسة ، كما فى ياقوت والكشف ، وله تفسير غريبه ، وقد مضى ذكره .

(١٨) خُطب الخيل : تكلم فيه على ألسنتها فى عشر كراسات ، كما فى ياقوت والكشف .

(١٩) خماسية الراح : قال ياقوت : هو كتاب لطيف فى ذم الخمر ومعنى هذا الوسم أنه بنى على حروف المعجم ، فذكر لكل حرف تمكن حركته خمس سجعات مضمومات ، وخمساً مفتوحات ، وخمساً مكسورات ، وخمساً موقوفات . يكون مقداره عشر كراسات . وتصحف اسمه على صاحب كشف الظنون بحماسة الراح ، فذكره فى حرف الحاء .

(٢٠) دعاء الأيام السبعة : ذكره ياقوت .

(٢١) دعاء ساعة : ذكره أيضاً .

(٢٢) دعاء وحرز الخيل : ذكره أيضاً .

(٢٣) ديوان الرسائل : وهى ثلاثة أقسام كالغفران والسندية ونحوها ، وسنذكر منها ماوقفنا على اسمه . ومنها مادون تلك ، كالرسالة الإغريضية ، ورسالة المنيح . ومنها قصار كنحو ما تجرى به العادة فى المكاتبة . قال ياقوت وصاحب كشف الظنون : إنها تقع جميعها فى ثمانمائة كراسة . وقد طبع قسم من هذه الرسائل فى بيروت وأكسفورد ، وعندى منها نسختان مخطوطتان فى إحداهما مكاتبات جرت بينه وبين ابن أبى عمران داعى الدعاة بمصر ، وهى التى لخصها

ياقوت فى إرشاد الاريب ، وقد مضى أنه شرح رسائله فى كتابه : خادم الرسائل .

(٢٤) ذكرى حبيب : ذكره صاحب الكشف ، وقال ياقوت : إنه مختصر فى غريب شعر أبى تمام ، سأله فيه صديق له من الكتاب . مقداره ستون كراسة فى أربعة أجزاء . وقال ابن خلكان : إنه اختصر ديوان أبى تمام وشرحه وسماه : ذكرى حبيب . وفى مقدمة شرح ديوان أبى تمام للتبريزى أن أبا العلاء إنما ذكر فى هذا الكتاب الأبيات المشكلة من شعر أبى تمام متفرقة . ومن فوائده التى نقلها عنه أن شعر أبى تمام إنما أغلق ، لأنه لم يؤثر عنه ، فتناقلته الضَّعَفَةُ من الرواة ، والجهلة من الناسخين ، فبدلوا الحركة بالحركة ، وأوقعوا الناظر بما جَنَوْهُ فى أم أَدْرَاصٍ[1] وتُغُلِّسَ ، وغيّروا الأحرف بسوء التصحيف ، فغادروا الفهم خابطاً فى عشواء ؛ لأن تغيير الضمة إلى الفتحة والكسرة ، يُنْشِبُ الفطنَ فى حِبالَة ؛ فأما نقل الحاء إلى الخاء ، والدال إلى الذال ، فيحدث عنه إلباس ، ويقرن به بلادة وإشكاس .

(٢٥) الراحلة : ثلاثة أجزاء فى تفسير لزوم ما لايلزم . ذكره ياقوت فقط .

(٢٦) راحة اللزوم : يشرح فيه ما فى لزوم مالا يلزم من الغريب ، نحو مائة كراسة ، كما فى ياقوت والكشف .

(٢٧) الرسالة الحضّية : كذا ذكرها ياقوت .

(٢٨) الرسالة الزعفرانية : ذكرها صاحب الكشف ولم يذكرها ياقوت .

(٢٩) الرسالة السندية : ذكرت فى ياقوت والكشف .

---

(١) أم أدراص : الداهية . ويقال : وقع فى وادى تغلس غير مصروف كتخيب وتهلك ، فى داهية منكرة ، والأصل فيه أن الغارات كانت تقع بكرة بغلس .

(٣٠) رسالة العروض : هكذا فى كشف الظنون ، وفى نسخة ياقوت: الفرض بالفاء ، ولعله القَرْضُ أو القريض بالقاف .

(٣١) رسالة على لسان ملَك الموت : ذكرها ياقوت ، ولا أدرى إن كانت رسالة الملائكة أو غيرها .

(٣٢) رسالة الغفران : كتبها لعلى بن منصور الحلبى المعروف بابن القارح ، جوابا على رسالة أرسلها له يذكر بها شوقه إلى لقائه ، وينحى فيها على الزنادقة ، ويتنقص الوزير المغربى صديق أبى العلاء . فأجابه برسالة الغفران ، وضمنها فنونا شتى من اللغة والأدب ، ونحا فيها نحواً غريباً ، فاستطرد إلى الجنة ، فوصفها وصفا يشوق النفوس إليها ، ويرغبها فى نعيمها ، وذكر النار وأهوالها بطريقة لا تسأمها النفس . وقد طبعت هذه الرسالة بمصر سنة ١٣٢٥ ، وعندى منها نسختان مخطوطتان ، وبدار الكتب الخديوية بالقاهرة نسخة من كتب الأستاذ الشنقيطى — رحمه الله — وفى القُسْطَنْطِينِيَّةِ العظمى نسخة أخرى فى خزانة الكبريلى . وكنت فى شوق لرسالة ابن القارح المذكورة ، حتى ظفرت بها فى مجموع نفيس وقع لى .

(٣٣) رسالة الملائكة : اقتصر ياقوت وصاحب الكشف على ذكر اسمها ، وقال أبو الفضل المؤيد بن الموفق الصاحبى فى كتاب « الحكم البوالغ ، فى شرح الكلم النوابغ » : رسالة الملائكة ، ألفها أبو العلاء المعرى على جواب مسائل تصريفية ألقاها إليه بعض الطلبة ، فأجاب عنها بهذا الطريق الظريف المشتمل على الفوائد الأنيقة . انتهى . قلت : وأسلوبه فيها غريب ، افتتحها معتذراً للسائل بكبر سنه ، وبُعد عهده بالمسائل النحوية والصرفية ، وقربه من الموت . ثم بدأ فى الجواب فقال : « أَفَتُرَانِي أدافع مَلَكَ الموت ، فأقول : أصل ملك مألك .. الخ » فساق هذا

البحث فى مناقشته مع المَلَك ، وأتى بشواهد من كلام العرب ، إلى أن انتقل إلى بحث آخر ، فقال : « فيقول المَلَك : مَن ابن أبى ربيعة وأبو عبيدة ، وما هذه الأباطيل ؟ إن كان لك عمل صالح فأنت سعيد ، وإلا فاخسأ وراءك ، فأقول : فأمهلنى حتى أخبرك بوزن عزرائيل ، وأقيم الدليل على أن الهمزة فيه زائدة . . . الخ » ثم انتقل إلى ناكر ونكير ، فباحثهما عن اسميهما ، وهكذا حتى أتم الإجابة عن الأسئلة فى هذا السياق العجيب . وعندى من هـذه الرسالة نسخة مخطوطة ضمن مجموع ، وبدار الكتب الأزهرية بالقاهرة أخرى ، وقد أوردها السيوطى بتمامها فى كتابه الأشباه والنظائر النحوية .

(٣٤) رسائل المعونة : وهى التى كتبها على لسان غيره ، ذكرها ياقوت وصاحب الكشف .

(٣٥) رسل الراموز : نحو ثلاثين كرّاسة . ذكره ياقوت .

(٣٦) الرياش المصطنعى : فى شرح مواضع من الحماسة الرياشية ، ألّفه الأمير مصطنع الدولة أبى غالب كليب بن على ، وكان أنفذ إليه نسخة من هذه الحماسة ، وسأله أن يخرج على حواشيها شيئاً مما لم يذكره أبو رياش ، فخشى أن تضيق الحواشى عن ذلك ، فصنع هذا الكتاب فى أربعين كراسة . ذكر فى ياقوت والكشف .

(٣٧) زجر النابح : يتعلق بلزوم مالا يلزم ، وذلك أن بعض الجهال تكلم على أبيات من لزوم مالا يلزم ، يريد بها التشرّر والأذيّة ، فألزم أبا العلاء أصدقاؤه بإنشائه ، فأنشأه وهو كاره . مقداره أربعون كراسة فى جزء واحد . ذكره ياقوت وصاحب الكشف . وله كتاب يتعلق بهذا ورد اسمه فى نسخة ياقوت « بحر الزجر » وقد مضى ذكره .

(٣٨) السادن : أنشأه فى تفسير غريب كتابه الفصول والغايات ، وما فيه من اللغز . مقداره عشرون كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الكشف .

(٣٩) السجعات العشر : موضوع على كل حرف من حروف المعجم عشر سجعات فى المواعظ . ذكره ياقوت وصاحب الكشف .

(٤٠) سجع الحمائم : تكلم فيه على لسان حمائم أربع ، وكان بعض الرؤساء سأله أن يصنف له تصنيفا يذكره فيه ، فأنشأ هذا الكتاب ، وجعل مايقوله على لسان الحمامة فى العظة والحث على الزهد . مقداره ثلاثون كراسة ، فى أربعة أجزاء . ذكر فى ياقوت والكشف .

(٤١) السجع السلطانى : يشتمل على مخاطبات الملوك والوزراء وغيرهم من الولاة ، سأله فيه بعض مَنْ خدم السلطان ، وارتفعت طبقته ، ولم يكن له قدم فى الكتابة ، فطلب أن يُنْشَأَ له كتاب مسجوع من أوله إلى آخره ، ولا يشعر بما يريد ، لقلة خبرته بالأدب . فألّف له هذا الكتاب . قال ياقوت : فى أربعة أجزاء ؛ وقال صاحب الكشف : إنه ثمانون كراسة .

(٤٢) سجع الفقيه : جزء فى ثلاثين كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الكشف .

(٤٣) سجع المضطرين : كتاب لطيف ، عمله لرجل تاجر مسافر ، يستعين به على أمور دنياه . ذكره ياقوت وصاحب الكشف .

(٤٤) سقط الزند : وهو ديوان يشتمل على أكثر من ثلاثة آلاف بيت ، ضمنه شعره فى صباه . وسمّاه بذلك لأن السقط أول نار تخرج من الزَّنْد ، فشبه شعره الأول به . قال التبريزى : لما حضرت أبا العلاء ، قرأت عليه كثيراً من كتب اللغة ، وشيئاً من تصانيفه ، فرأيته يكره أن يُقرأ عليه شعره فى صباه ،

الملقّب بسقط الزَّنْد ، وكان يغير الكلمة بعد الكلمة منه إذا قرئت عليه ، و يقول معتذراً عن تأبّيه ، وامتناعه من سماع هذا الديوان : مدحت نفسى فيه ، فلا أشتهى أن أسمعه . وكان يحثنى على الاشتغال بغيره من كتبه . انتهى . ولهذا الديوان شروح ، أولها شرح لأبى العلاء نفسه سماه (ضوء السقط) وهو غير واف ، نقله عنه التبريزى ، وأوضح مشكلاته ، وذكر اللغة الغريبة ، واقتصر فى تفسير المعانى على ما لا بد منـه . ثم تناوله أبو يعقوب يوسف بن ظاهر النحوى ، فأصلحه وزاد فيه ، وسماه : « التنوير » وطبع بمصر غُفْلًا من اسم مؤلفه . ومن شروح هـذا الديوان شرح الفخر الرازى ، و « ضرام السقط » لمجد الدين أبى الفضل قاسم بن حسين بن محمد الخوارزمى المشهور بصدر الأفاضل النحوى ، وقفت على نسخة منـه فى خزانة آل رفاعة بالقاهرة . و « الزوائد » لأبى رشاد الإخسيكتى ، و « العمدة » لابن البارزى ، وشرح ابن السِّيد البَطَلْيَوْسِىّ وهو عزيز الوجود ، وقعت لى منه أوراق من نسخة قديمة ، فإذا به شرح على ديوان ممزوج من سقط الزند واللزوميات . وقد انتقد أبو بكر بن العربى على مواضع منه ، فردّ عليه ابن السِّيد فى رسالة لطيفة ، وقفت عليها وهى عندى . وللشيخ تاج الدين بن عبد الرحمن شرح على قصيدة لامية من هذا الديوان مطلعها :

* ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل *

سماه : « مراقى العلا ، فى شرح لامية أبى العلا » وهو عندى فى مجموع .

(٤٥) سيف الخطيب : هكذا فى الـكشف ، وفى ياقوت «سيف الخطبة» . وهو جزءان ، يشتمل على خطب السنَة ، فيه خطب للجمع والعيدين والخسوف والـكسوف والاستسقاء وعقد النكاح ، وهى مؤلفـة على حروف من حروف المعجم ، فيها خطب عمادها الهمزة ، وخطب بنيت على الباء ، وخطب على الدال ،

وعلى الراء ، وعلى اللام ، وعلى الميم ، وعلى النون ، وتركت الجيم والخاء وما يجرى مجراها ؛ لأن الكلام المقول فى الجماعات ينبغى أن يكون سَجْسَجًا[1] سهلا . مقداره أربعون كراسة . وكان سأله فيه رجل من المتظاهرين بالديانة .

(٤٦) شرح الرسالة الإغريضية : لم يذكره ياقوت ، وذكره صاحب الكشف . مقداره عشرون كراسة . وللشيخ إبراهيم الفصيح بن صبغة الله الحيدرى ، من علماء أواخر القرن الثالث عشر ، شرح على الرسالة الإغريضية ، سماه : النوادر الحكمية والأدبية ؛ ألفه برسم مصطفى باشا بن إبراهيم بن محمد على والى مصر ، وتوجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب الخديوية بالقاهرة .

(٤٧) شرح كتاب سيبويه : فى النحو ، فى خمسين كراسة ، ولم يتمه . كما فى ياقوت والكشف وبغية الوعاة .

(٤٨) شرف السيف . قال ياقوت : عمله للمشتكين الدرزى الذى كان مقيما بدمشق ، والسبب فيه أنه كان يوجه إلى أبى العلاء بالسلام ، ويخفى المسألة عنه ، فأراد جزاءه على ما فعل . وهو فى جزءين . وفى كشف الظنون : « شرف السلف عشرون كراسة عمله لأمير الجيوش » .

(٤٩) الصاهل والشاحج : يتكلم فيه على لسان فرس وبغل ؛ مقداره أربعون كراسة ؛ صنفه لأبى شجاع فاتك الملقب بعزيز الدولة والى حلب من قبل المصريين ، وكان روميا . ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف فى الرسائل . وفى خطط المقريزى ج ٢ ص ١٥٤ رواية رواها أبو العلاء فى الصاهل والشاحج ، للبيتين : زر وادى القصر . . . الخ .

والشاحج : البغل ؛ وشَحِيجه ، وشُحَاجُهُ : صوته .

---

(١) السجسج : الذى بين الصلابة واللين . والهواء السجسج : ليس بحار ولا بارد .

(٥٠) ضوء السقط : فسر فيه غريب ديوانه سقط الزند ، مقداره عشرون كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الكشف وابن خلكان . وقد فَصَل بعضهم الدرعيّات من سقط الزند ، وطبعها على حدة فى بيروت ، وسماها : ضوء السقط ، وهو خطأ ينبغى أن يُتَنَبَّهَ له .

(٥١) الطَّلّ الطاهرى : أنشأه لرجل يعرف بأبى طاهر . ذكره ياقوت ، ولم يذكر فى الكشف .

(٥٢) ظهير العضدى : يتصل بالكتاب المعروف بالعضدى فى النحو . ذكره ياقوت وصاحب الكشف والسيوطى .

(٥٣) عبث الوليد : يؤخذ من عبارة ابن خلكان أنه اختصر فيه شعر البحترى وشرحه ، واسم الكتاب لا يدل على ما قال . وقال غيره : إنه يتضمن أغاليط البحترى . وقال ياقوت : إنه يتصل بشعر البحترى ، وكان سبب إنشائه أن بعض الرؤساء أنفذ نسخة ليُقَابَل بها ، فأثبت ما جرى من الغلط ليعرض ذلك عليه . وهو جزء واحد فى عشرين كراسة . أقول : قد وقعت لى نسخة من هذا الكتاب ، فوجدتها كما قال ياقوت ، والخطأ الذى يذكره أبو العلاء تارة يكون من النسخة المرسلة إليه ، وتارة من الناظم نفسه ؛ ولهذا سماه بعبث الوليد توريةً باسمه ، لأن البحترى اسمه الوليد . والوليد أيضاً : الصبى ، فكأنه قال : لعب الصبى وخلطه . ورتب فيه الأبيات التى تعرض لها على حروف المعجم باعتبار قوافيها ، وله فيه فوائد وآراء ؛ كقوله فى بيت البحترى فى وصف فرس :

أخواله للرُّسْتَمَيْنِ[1] بفارس وجدوده للمُتَّبَعَيْنِ بِمَوْكَلِ[2]

---

(١) رستم : بضم الراء وسكون السين وفتح المثناة الفوقية ، وقد تضم .

(٢) موكل موضع ، ولا نظير له إلا مورق اسم ملك للروم وموزن وموهب وموظب =

قال : يروى الرُّسْتَمِينَ على الجمع وكذلك التُّبَعِين ، ويروى بالتثنية ، والجمع أشبه ؛ لأنه قال أخواله فجَمَع ، وكذلك قال جدوده . فأنْ تكون الأخوال والجدود لملوك كثيرة أشبه من أن تكون لملكيْن . انتهى كلامه . قلت : وقد يقال أيضاً فى ترجيح ما رجَّحه أن لا وجه لتخصيص اثنين من تبابعة اليمن بالذكر ؛ لأنه لم يسمع عن اثنين مخصوصين منهم امتازا بشهرة تصرف إليهما الأذهان ، إذا ذكر التُّبَّعان ، وما يقال فيهما يقال فى الرستمين ، فرواية الجمع أرجح وأقرب إلى الصواب .

(٥٤) عظات السور : ذكره ياقوت ، ولم يتكلم عليه .

(٥٥) العظة والزهد : لم يذكره ياقوت ، وذكره صاحب الكشف فى حرف الكاف فى الكتب ، وقال : مائة وعشرون كراسة .

(٥٦) عون الجُمَل : قال ياقوت : يتصل بكتاب الزَّجَّاجي ، عمله لأبى الفتح محمد بن على بن أبى هاشم ، وهو آخر شىء أَمْلاَه ، وفى كشف الظنون أنه شرح لشواهد جُمَل الزَّجَّاجي لم يتم ، وكذلك فى بغية الوعاة للسيوطى .

(٥٧) الفصول : لم يذكره ياقوت ، وذكره صاحب الكشف فقال : إنه غير الفصول والغايات ، وهو أربعمائة كراسة .

(٥٨) الفصول والغايات : هو الكتاب الذى زعم شَانِئُوه أنه عارض به القرآن الكريم ، وسماه الفصول والغايات فى معارضة السور والآيات ، وسنشبع القول فى هذا الزعم عند الكلام على معتقده . وليس فى هذا الكتاب إلا عظات ونصائح ، والمراد بالغايات القوافى ؛ لأن القافية غاية البيت أى منتهاه ، وهو

= وموحد ، والقياس فيما كانت فاؤه حرف علة أن يكون المفعل منه مكسور العين ، مثل موعد ومورد ، ولكن جاءت هذه شاذة .

موضوع على حروف المعجم ما خلا الألف ؛ لأن فواصله مبنيـة على أن يكون ما قبل الحرف المعتمد فيها ألف ، ومن المحال أن يجمع بين ألفين . ولـكن تجيء الهمزة وقبلها ألف ، مثل العطاء والـكساء ، وكذلك الشراب والسراب فى الباء ، ثم على هذا الترتيب ، وليست حروفه المبنى عليها مستوية الإعراب ، بل تجيء مختلفة ، وفيها ما يجيء على نسق واحد . وقيل : إنه بدأ فيه قبل رحلته إلى بغداد وأتمه بعـد عوده إلى المعرة ، ومقداره مائة كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الـكشف . ويتعلق بهذا الـكتاب : إقليد الغايات ، والسادن ، وقد مر ذكرهما .

(٥٩) فضائل أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، كرم الله وجهـه . ضمنه بعض فضائله . ذكره ياقوت فقط .

(٦٠) قاضى الحق : يتصل بكتاب الـكافى فى النحو لأبى جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ . ذكر فى ياقوت والـكشف .

(٦١) القائف : ذكره صاحب الـكشف فى حرف الـكاف فى الـكتب ، وسقط من نسخة ياقوت المطبوعة ، إلا أن فى كلامه على كتابه المسمى بمنار القائف دلالةً على أن له كتاباً بهذا الاسم .

(٦٢) اللامع العزيزى ، فى شرح شعر المتنبى ، صنَّفه للأمير عزيز الدولة ابن تاج الأمراء أبى الدوام ثابت بن ثمال ، مقـداره مائة وعشرون كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الـكشف وابن خلـكان وغيرهم ، ومنـه نسخة بخزانة لا له لى بالقسطنطينية رقمها (١٨٢٥) .

(٦٣) لزوم ما لا يلزم : هو ديوان كبير مرتب على حروف المعجم ، يذكر كل حرف بوجوهه الأربعة : الضمة والفتحة والـكسرة والسكون . ومعنى لزوم ما لا يلزم أنه يلتزم قبل الروى حرفاً إذا غُيِّر لم يكن مخلاً بالنظم . قال فى خطبته :

إنه ذكر فيه ما هو تمجيد لله الذى شرف عن التمجيد ، أو تذكير للناسين ، وتنبيه للغافلين ، أو تحذير من الدنيا ؛ فإن جاوز المشترط ، فإن الذى جاوز إليه قول عرىٌ من المين . وهو أحد كتبه التى تكلموا فيها ، وسنفصل القول فيه عند الكلام على معتقده وشعره . طبع بالهند سنة ١٣٠٣ وبمصر سنة ١٨٩١ — ١٨٩٥ ميلادية . وكان الأديب الفاضل الشيخ أحمد الفحماوى النابلسى ، نزيل مصر رحمه الله تعالى ، مشتهرا بكتابة نسخ من هذا الكتاب ، يتحرى فيها الصحة ، ويطرزها بالحواشى المفيدة ، ثم يبيع النسخة بعشرين ديناراً مصرياً ، فيتنافس فى اقتنائها أعيان مصر وسراتها ، وعندى منها نسختان . ووقعت لى نسخة مخطوطة من مختصر له ، اسمه : مختار لزوم ما لا يلزم ، تنقص أوراقا من أولها ، ويبتدئ بما فيها من أثناء قافية الباء المضمومة ، ولذهاب أولها لم أقف على اسم مؤلفها . ولأبى العلاء شرح عليه سماه : راحة اللزوم ، وله أيضاً : زجر النابح ، وبحر الزجر ، والراحلة . وكلها تتعلق باللزوميات ، وقد مضى ذكرها .

(٦٤) مبهج الأسرار : لم يذكره ياقوت ، وقال صاحب كشف الظنون : لأبى العلاء ، ولم يقل المعرى ، واسم الكتاب يدل على أنه لغيره .

(٦٥) مثقال النظم : فى العروض . ذكره ياقوت والسيوطى فى بغية الوعاة .

(٦٦) مجد الأنصار ، فى القوافى . ذكره ياقوت .

(٦٧) المختصر الفتحى : يتصل بكتاب محمد بن سعدان ، صنّفه لرجل يكنى أبا الفتح محمد بن على بن أبى هاشم ، وكان أبو هذا الرجل تولى إثبات ما ألّفه أبو العلاء من جميع كتبه ، فألزمه بذلك حقوقاً جمة ، وأيادى كثيرة . كذا ذكر ياقوت .

(٦٨) معجز أحمد : لم يذكره صاحب الكشف ، ويذهب بعضهم إلى أنه هو اللامع العزيزى فى شرح شعر المتنبى . ويستفاد من عبارة ابن خلكان أنه غيره ، وأن أبا العلاء اختصر ديوان المتنبى ، وتكلم على غريبه ، وذكر سرقاته وما أخذ عليه فى هذا الكتاب . ومن فوائده التى ذكرها فيه ، ونقلها عنه أصحاب البديع ، استنباطه لنوع من البديع سماه « الطاعة والعصيان » عند كلامه على قول المتنبى :

يردّ يداً عن ثوبها وهو قادر ويعصى الهوى فى طيفها وهو راقد

فزعم أنه أراد أن يقول وهو مستيقظ ليطابق بينه وبين راقد ، ولما عصاه الوزن عدل عنه إلى قادر ، وفيه معنى مستيقظ وزيادة ، فأطاعه التجنيس المقلوب بين قادر وراقد ، وعصته المطابقة بين راقد ومستيقظ . ورد عليه زكى الدين بن أبى الإصبع بأنْ ليس فى البيت شىء من ذلك ، لإمكان أن يقول وهو ساهر بدل قادر . انتهى . وجلّ من أتى بهذا النوع من أصحاب البديعيات ، لم تسلم أبياتهم من مثل هذا النقد .

(٦٩) ملقى السبيل : مختصر فيه نظم ونثر ، ذكره ياقوت وصاحب الكشف ، ووقعت لى نسخة منه ، فوجدته فى المواعظ مرتباً على حروف المعجم ، يذكر فى كل حرف فقرات من النثر ، ثم يتبعها بأبيات من القافية ؛ كقوله فى حرف الحاء : إن ابن آدم شحيح ، سوف يمرض من القوم صحيح ، يعصف بعقله الريح ؛ إن ذلك لهو التبريح .

يأيها الممسك الشحيح سيمرض السالم الصحيحُ
ما لك لم تنتفع بعقل هل عصفت بالعقول ريحُ
إن شُيِّد القصر فى سرور فبعده يُحفر الضَّريحُ

ويطارح الهمّ بالمنايا مَنْ جسمُه فى الهوى طريحُ

(٧٠) منار القائف : فى تفسير ماجاء من اللغز والغريب فى كتابه القائف ، لداره عشر كراريس . ذكره ياقوت .

(٧١) المواعظ الست : ذكره ياقوت وصاحب الكشف ، ومعنى هذا لاسم أن الفصل الأول منه فى خطاب رجل ، والثانى فى خطاب اثنين ، والثالث ، خطاب جماعة ، والرابع فى خطاب امرأة ، والخامس فى خطاب امرأتين ، السادس فى خطاب نسوة . فى خمس عشرة كراسة .

(٧٢) نشر شواهد الجمهرة : لم يذكر فى الكشف ، وقال ياقوت : إنه فى لاثة أجزاء ، ولم يتم .

(٧٣) نظم السور : ستة كراريس ، ذكره صاحب الكشف ، وجاء فى نسخة ياقوت : تظلم السور ، بالمثناة الفوقية ، ولعله تحريف .

(٧٤) وقعة الواعظ : هكذا فى نسخة ياقوت ، وقال مصححه : لعله برقعة لواعظ ، ولم يذكره صاحب كشف الظنون .

* * *

وله سوى ذلك كتب فى العروض والشعر بدأبها ولم تتم . ورأيت بعض العصريين ينسب إليه كتابا اسمه الفصوص ، ويزعم أنه سقط منه فى الدجلة ، وهو يحمله إلى أحد الأمراء ببغداد ، فقال فيه بعض الشعراء :

قد غاص فى النهر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقيل يغوص

فأجابه أبو العلاء بقوله :

عاد إلى معدنه إنما توجد فى قعر البحار الفصوص

والصواب أن هذا الكتاب لأبى العلاء صاعد اللغوى البغدادى ، أحد

الراحلين إلى الأندلس ، وبها ألفه ، ووقعت له هذه القصة . وسببها أنه استأذن من المنصور بن أبي عامر في إملاء كتاب بجامع مدينة الزهراء ، يفوق أمالي أبي علي القالي التي أملاها بقرطبة في دولة عبد الرحمن وابنه الحكم ، واشترط أن لا يورد فيه خبراً أورده القالي . فأذن له في ذلك ، فأملى كتاب الفصوص ، ولما أكمله تتبعه أدباء الوقت ، فلم تمرّ فيه كلمة صحيحة عندهم ، ولا خبر ثبت لديهم . وكان صاعد متهماً بالكذب جريئاً عليه ، فأراد المنصور امتحانه ، فعمد إلى كراريس بيض وأمر أن تجلّد وتُزال جدّتها حتى يتوهم فيها القدم ، وترجم عليها كتاب النكت تأليف أبي الغوث الصنعاني ، فترامى إليه صاعد حين رآه ، وجعل يقبله ، ويقول : إي والله ، قرأته بالبلد الفلاني على الشيخ أبي فلان ، فأخذه المنصور من يده خوفاً من أن يفتحه ، وقال : إن كنت قد قرأته كما تزعم ، فعلام يحتوي ؟ فقال : وأبيك لقد بعد عهدي به ، ولا أحفظ الآن منه شيئاً ، ولكنه يحتوي على لغة منثورة لا يشوبها شعر ولا خبر ، فقال له المنصور : أبعد الله مثلك ، فما رأيت أكذب منك . وأمر بإخراجه وإلقاء كتاب الفصوص في النهر ، فقال فيه بعض الشعراء ، وأجابه صاعد بما تقدم .

قال ابن بسام : وما أظن أحداً يجترئ على مثل هذا ، وإنما صاعد اشترط ألا يأتي إلا بالغريب غير المشهور ، وأعانهم على نفسه بما كان يتنفق به من الكذب . انتهى .

ومن جراءته على الكذب نادرته في الخنفشار ، وذلك أن المنصور سأله يوماً عنه ، فقال على البديهة : هو حشيشة يعقد بها اللبن ببادية الأعراب ، وفي ذلك يقول شاعرهم :

لقد عقدت محبتها بقلبي كما عقد الحليب الخنفشار

ورواية هـذه اللفظة بالخاء المعجمة والفاء هو المشهور فى كتب الأدب والتاريخ ، وقد رويت بالباء الموحدة فى نسختى نفح الطيب المطبوعتين بمصر ، وردت فى التى طبعت بأوربا بالحاء المهملة والباء الموحدة ، ورواية البيت فيها :

لقـد عُقِدت محبتُهـا بقلبى كما عُقِد الحليبُ بحنبشار

إلا أن المصحح ذكر بالحاشية ورودها فى بعض النسخ بالخاء المعجمة والباء الموحدة ؛ وفى أخرى بالخاء أيضا والفاء ، وهو الصواب على ما ترجح عندى ، وما عداه محرّف عنه . وسببه أن صاحب نفح الطيب تلمسانىّ كما هو معلوم ، وقاعدة المغاربة فى الكتابة نقط الفاء بنقطة من تحت ، فيظهر أن نسخة الأصل كتبت بخط مغربى ، وطمس الكاتب رأس الفاء ، فظهرت بصورة الباء لمكان النقطة التحتية ، وتصحيف الخاء المعجمة بالحاء المهملة قريب . وإنما رجحت هذا الوجه ؛ لاشتهاره فى سائر الكتب كما ذكرت آنفا . ويجوز أن يكون الصواب فى أحد الوجهين الآخرين ، إلا أن مثل هذا لا يثبت إلا بنص ، ولم أقف على نص فيـه . والخطب أسهل من أن نطيل فيه الكلام ؛ لأن الظاهر من مفاد القصة أن الكلمة مخترعة . والله أعلم .

فصل فى ثروته وزهده

قد علمت مما تقدم أن أبا العلاء كان من بيت ثراء وغنى ، والمتبادر فى مثله أن يكون مثريا كأهله ، ولكنك لو تتبعت بقية أخباره ، وأنعمت النظر فى أقواله عن نفسه ، سواء كانت نثراً أو شعراً ، ظهر لك أنه كان على العكس من ذلك . وحسبك تصريحه فى إحدى رسائله إلى داعى الدعاة ، بأن الذى له فى السنة نيف وعشرون ديناراً يشاركه خادمه فى معظمها . وسيمر بك فى هذا الفصل شىء من أشعاره المنبئة عن إملاقه وحاجته . والحقيقة المزيلة للبَّس أنه كان على شىء من الثروة نكب فيه قبل قفوله من بغداد ، فعاش بعد ذلك فى كفاف ، بدليل قوله :

أثارنى عنكمُ أمران والدةٌ ... لم ألقها وثراء عاد مسفوتَا[1]

أحياها الله عصر البين ثم قضى ... قبل الإياب إلى الذُّخْرين أنْ مُوتَا

يعنى : أحيا الله والدتى ومالى وأنا بعيد عنهما ، فلما أزمعت الإياب قضى على الوالدة بالموت ، وعلى المال بالضياع .

على أنه كان على فقره قنوعا عيوفا كبير النفس ، يضرب فى علو الهمة بسهم وافر ، لم يسمع أنه استماح أحداً ، أو مدح طمعاً فى نوال ، ومن قوله فى خطبة سقط الزند : « ولم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ، ولا مدحت طلباً للثواب ، وإنما كان ذلك على معنى الرياضة ، وامتحان النُّوس[2] ، فالحمد لله الذى ستر بغُفَّةٍ[3] من

---

(١) المسفوت : القليل البركة .

(٢) النوس : بالضم الطبيعة .

(٣) الغفة ، بالضم : البلغة من العيش .

قوام العيش ، ورزق شعبة من القناعة أوفت على جزيل الوفر. ومن غرر أقواله فى ذلك :

وإنى تيممت العراق لغير ما تيممه غَيْلَان عنـــد بلال
فأصبحت محسوداً بفضلى وحده على بعـد أنصارى وقلّة مالى

غَيْلَان هو ذو الرُّمّة ، كان قصد بلال بن أبى بُرْدَة بن أبى موسى الأشعرى مستمنحاً ، وفيه يقول :

سمعتُ : الناسُ ينتجعون غيثا فقلت لصَيْدَحَ : انتجعى بلالا

وصَيْدَح اسم ناقته ، والرواية فى الناس بالرفع على الحكاية ؛ لأنه سمع من يقول : الناسُ ينتجعون غيثا ، فحكى ماسمع ، جزم بذلك المبرّد ، وعدّ الحريرى النصبَ من الأوهام ، وذهب غيرهما إلى أنه يجوز .

وقال أبو العلاء يصف حاله ببغداد :

تمنّيت أن الخمر حلّت لنشوة تُجهّلنى كيف اطمأنت بى الحال
فأذهل أنى بالعراق على شَفَى رزيّ الأمانى لا أنيس ولا مال
مُقلّ من الأهلَيْنِ يُسْرٍ وأُسْرَةٍ كفى حَزَنًا بَيْنٌ مُشِتٌّ وإقلال
وكم ماجد فى سِيفِ دجلة لم أَشِمْ له بارقا والمرء كالمزن هطّال[1]
من الغرّ تَرّاكُ الهواجر مُعْرِضٌ عن الجهل قذّاف الجواهر مفضال
سيطلبنى رزقى الذى لو طلبته لما زاد ، والدنيا حظوظ وإقبال

وقال أيضاً :

رحلتُ لم آتِ قِرْوَاشًا أُزَاوِله ولا المهذّبَ أبغى النَّيْلَ تقويتا
والموت أحسن بالنفس التى ألفت عِزَّ القناعة عن أنْ تسأل القوتا

(١) السيف ، بالكسر : الساحل .

قِرواش كان والياً ببغداد ، والمهذب وزيره . وروى أن المستنصر الفاطمى خليفة مصر بذل له ما فى بيت مال المعزة من الحلال ، فلم يقبل منه شيئاً ، وقال :

لا أطلب الأرزاق والـــمَوْلى يفيض علىّ رزقى
إن أُعْطَ بعض القوت أعـــلم أن ذلك فوق حَقِّى

ويعجبنى قوله فى لزوم مالا يلزم :

وكأنمـــا الدنيا كعَابٌ أَيُّنَا رَجَّى لها صِـــلَةً فذاك يَسَارُ
وإذا الفتى لحظ الزمان بعينه هان الشقاء عليـــــه والإعسار

وقوله :

نوائب ألقت فى النفوس جراحُها عصى كل آسٍ فى البرية سَبْرُهَا
لِيَ القوت فلْيَغْمر سَرَنْدِيبَ حَظُّهَا من الدُّرِّ أو يَكْثُرْ بغَانَةَ تِبْرُهَا

سرنديب جزيرة قرب الهند ، فيها مغاوص لِلُّؤلؤ ، وتسمى اليوم سيلان ، وغَانَة مدينة كبيرة فى جنوبى بلاد المغرب ، هى مدخل بلاد التِّبْر كما فى ياقوت ، وتطلق اليوم على أرض واسعة فى غربى قارة إفريقية ، تقاسمها الإفرنج بينهم ، واسمها فى لغتهم (Guinée) جينا بالإمالة ، أو : غينا ، والأصل فيه غَانة ؛ كما قدمنا ، والرجوع إليه أولى . ويطلق الإفرنج هـذا الاسم أيضا على أول دينار إنجليزى ضرب من الذهب المستخرج من هذه الجهة ، وأبطل الإنجليز التعامل به من سنة ١٨١٧ ميلادية ، واستعاضوا عنه بدينارهم المسمى (Souverain) سوڤران ، ومن هذا تعرف سبب تسمية المصريين كل دينار بالجنيه ، وكان الصواب أن يسموه بالغانى ، إن أرادوا النسبة إلى تلك الجهة ، وإلا فالرجوع إلى الدينار أولى .

وكان شأن أبى العلاء فى الزهد والتقشف والإعراض عن الدنيا شأنا عجبا ، ولا يذهبن بك الظن فتتوهم أن للفقر مدخلا فى زهده ، فإن من تُبْذَلُ له الخزائن ،

وتُعْرَض عليه الصلات ، لا تستعصى عليه غاية من الغايات ، ولكنه نظر إلى هذا المتاع الزائل نظر مَنْ لم يُلهه زخرفه عن استطلاع حقيقته ، فصدّ عنه وزهد فيه جملةً ، وأخذ نفسه بالرياضة والخشونة ، والإعراض عن العرض الفانى ؛ فكان لباسه القطن ، وفراشه اللِّبْد ، وحصيرُه برديّه ، وطعامه الفول والعَدَس ، وحلاوته التين ، وفيه يقول :

يقنعنى بُلْسُنٌ يُمارَسُ لِى ... فإن أتتنى حلاوة فبَلَسْ[1]

فَلَسٌ ما اخترتَ إنَّ أروح من ... يسار قارونَ عفّةً وفَلَسْ[2]

وسنورد مختار شعره فى الزهد ، متى وصلنا إلى الكلام على منظومه ، كما أننا سنشبع القول فى سبب تجافيه عن أكل الحيوان ، عند الكلام على معتقده .

وكان رحمه الله ، على عوزه ورقة حاله ، بذولا لما عنده ، غير مانع معروفا عن مستحق ، يتكلف فى ذلك ما استطاع . بَلَغَهُ مَرَّةً أن شاعراً يلقب بصريع البَيْن ساءت به الحال ، فأنفذ إليه قدراً من الدراهم ، وأتبعها بقصيدة يقول فيها :

قد استحييت منك فلا تكِلنى ... إلى شىء سوى عذر جميل

وقد أنفذت ماحق عليه ... قبيح الهجو أو شتم الرسول

وذاك ، على انفرادك ، قوت يوم ... إذا أنفقت إنفاق البخيل

فكيف وأنت عُلوىّ السّجايا ... فليس إلى اقتصادك من سبيل

إلى أن يقول :

فإن يك مابعثتُ به قليلا ... فلى حال أقل من القليل

وحدث للقاضى أبى محمد عبد الوهاب بن على بن نصر الفقيه المالكى المشهور

---

(١) البلسن بالضم : العدس ، والبلس بالتحريك : التين .

(٢) اللس : الأكل .

ضيق وشدة ، وهو ببغداد ، فلم ير بُدًّا من الرحيل عنها ، وخرج لتشييعه يوم فَصَل جمع من أكابرها ، وطوائف كثيرة من أهلها ، وما فيهم إلا متوجع لفراقه ، أو آسف على فوات الاستفادة من علمه ، فقال لهم عند الوداع : لو وجدت بين ظَهْرَانَيْكُمْ رغيفين كل غداة وعشيّة ما عدلت عن بلدكم . فلم تحرك مقالته واحداً منهم ، يتكفل له بما طلب ؛ فسار عنهم قاصداً مصر ، واجتاز بمعرة النعمان ، وبها يومئذ أبو العلاء ، فأضافه واحتفى به ، وفيه يقول :

والمالكيّ ابن نصر زار فى سفر ... بلادنا فحمدنا النأى والسفرا
إذا تفقه أحيا مالكا جدَلًا ... وينْشرُ الملكَ الضِّلِّيلَ إن شَعَرَا (١)

ثم حباه عند رحيله بثلاثين درهما ، وخاطبه معتذراً بقوله :

أيَبْسُطُ عذرى منعم أم يخصنى ... بما هو حظى من أليم عتاب
قبول الهدايا سُنَّةٌ مستحبَّة ... إذا هى لم تسلك طريق تحاب
فياليتنى أهديت خمسين حِجَّةً ... مضت لىَ فيها صحتى وشبابى
وقَلَّتْ له فاترك ثلاثين أسوداً ... متى ما تُكَشَّفْ تُلْفَ غيرلُبَابِ
إذا أسكت المحتجّ كلّ مناظر ... فعند ابن نصر نجدة بجواب
وما أنا إلا قطرة من سحابة ... ولَو أننى صَنَّفت ألفَ كتاب
وبين يديه كفر طاب وإنْسُها ... يعيش لفقد الماء عيش ضِباب
لعل الذى أنفذتُ يكفيه ليلة ... لإسباغ طهر حان أو لشراب

يقول : لعل هذه الدراهم القليلة ، وإن كانت سوداء غير خالصة الفضة ، تكفى الشيخ لأن يشترى بها قليلا من الماء لطهره أو لشرابه ؛ فإنه معرج على كفر طاب ، وهى قليلة الماء ، وأهلها يعيشون بها عيش الضِّبابِ ، وإنما خص الضِّبابَ

(١) الملك الضليل : امرؤ القيس .

بالذكر ؛ لأنها تصبر على العطش . وبعض المحققين من أهل عصرنا يرى أن كفر طاب هى البلدة المسماة الآن بإدْلِب ، وهى قَصبة قضاء باسمها ، من لواء حلب . ولم تزل قليلة الماء . وفيها يقول أبو العلاء فى لزومياته :

أرى كفر طاب أعجز الماء حفرها ... وبالِسَ أغناها الفُرَات عن الحفر (١)

كذلك مجرى الرزق ، وَادٍ بلا ندًى ... ووادٍ به فيض وآخر ذو جَفْر

ولما وصل القاضى عبد الوهاب المذكور إلى مصر ، أقبلت عليه الدنيا ، وانهالت عليه صلات الأمراء ، ولكنه لم يتمتع بشىء منها ، بل مات عقب وصوله من أكلة اشتهاها ، وسمعوه يقول وهو يتقلب ويتململ : لا إله إلا الله ، إذا عشنا متنا . وهو القائل فى بغداد :

بغداد دار لأهل المال طيبة ... والمفاليس دار الضنك والضيق

ظللت حيران أمشى فى أزقتها ... كأننى مصحف فى بيت زنديق

---

(١) بالس كصاحب : بلدة بشط الفرات .

فصل فى بقية أخباره

لما دخل أبو العلاء بغداد أقبل عليه علماؤها وأدباؤها ، معجبين بفطنته ، وسعة علمه . واختص بصحبته جماعة منهم : كأبى القاسم على بن المحسّن القاضى التنوخى ، وكخازن دار العلم ، والشريفين الرضى والمرتضى ابنى أبى أحمد الموسوى ، وغيرهم . وكان المرتضى شديد الاختصاص به ، وله معه مباحثات ومداعبات .

رُوِى أنه حضر مجلسه يوما ، وجرى ذكر المتنبى فتنقصه المرتضى ، وجعل يتتبع عيوبه ؛ لبغضه له ، وتعصبه عليه . وكان أبو العلاء على عكسه يتعصب للمتنبى ، ويزعم أنه أشعر المُحْدَثِينَ ، ويفضله على بشار ومَن دونه ؛ كأبى نواس وأبى تمام . فقال : لو لم يكن للمتنبى إلا قوله : (لكِ يا منازل فى القلوب منازل) لكفاه فضلا . فغضب المرتضى ، وأمر به فأخرج من مجلسه ، ثم التفتَ إلى مَن بحضرته ، وقال لهم : أتدرون أى شىء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة ، مع أن لأبى الطيب ما هو أجود منها ؟ فقالوا : الفقيب السيد أعرف ، فقال : أراد قوله فى هذه القصيدة :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

قلت : ومن التلميح المستعذب بهذا البيت ، ما وقع للفتح بن خاقان مع ابن الصائغ ، وقد ذكره بسوء فى كتابه قلائد العقيان ، فمر عليه ابن الصائغ يوما وهو فى جماعة ، فضرب بيده على كتفه ، وقال : إنها شهادة يا فتح . ثم مضى فى سبيله ، فتغيرلون الفتح ، وقال : والله ما بلغت بوصفى له فى كتابى عُشْرَ ما بلغ منى بهذه الكلمة !

ويشبه قصة المعرى مع المرتضى ما وقع للخالديين مع سيف الدولة ، لما عاتباه فى تفضيله المتنبى ، وقالا : ليختر الأمير ما شاء من قصائده ، حتى ننظم ما هو أجود منها ، فاقترح عليهما أن يعارضا قوله :

لِعَيْنَيْك ما يلقى الفؤاد وما لقِى وللحب ما لم يَبْقَ منّى وما بَقِى

فلما كررا النظر فيها لم يجداها من غرر قصائده ، ثم فطنا إلى أن سيف الدولة أراد بهما قوله فيها :

إذا شاء أن يلهو بلحية احمق اراه غبارى ثم قال له الحقِ

فأحجما عن المعارضة ولم يعاوداه . وفى رواية أن هذه القصة وقعت للسَّرِىّ الرَّفَّاء لا الخالديين . وحكى بعضهم ، قال : خرجت على سبيل الفرجة ، فقعدت على الجسر ببغداد ، فأقبلت امرأة من جانب الرُّصَافة تريد الجانب الغَرْبِىّ ، فاستقبلها شاب فقال لها : رحم الله علىّ بن الجَهْم ، فقالت فى الحال : ورحم الله أبا العلاء المعرى . ولم يقفا ، ومرَّا مشرِّقًا ومُغَرِّبَةً ، فتتبعتُ المرأة وقلت لها : أخبرينى عافاك الله عما قال لك ، وعما أجبت به ، فقالت : نعم ، رحم الله على بن الجهم ، أراد قوله :

عيون لها بين الرُّصَافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

وأردت بترحمى على أبى العلاء قوله :

فيـــا دارها بالحَزْن إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوالُ

ورُوِىَ أن أحد الشرفاء سقط منه خاتم فى الحرم ، فقال له أحد بنى عمه : لِمَ لَمْ تقف على طلب هذا الخاتم الثمين ؟ فقال له : ألست من أبناء أمير المؤمنين ؟ أراد الأول قول المتنبى :

بَلِيت بِلَى الأطلال إن لم أقف بها وقُوفَ شحيحٍ ضاع فى الترب خَاتَمُهْ

وأراد الثانى قوله من قصيدة أخرى :

كذا الفاطميون الندى فى أكفهم أعزُّ امّحاءً من خطوط الرواجب (١)

يريد : أن الندى ملازم لأكفهم ، كما أن خطوط الرواجب ملازمة لها .

وفى البيت الأول نادرة لأبى العلاء ، وذلك أنه بلغ من ولوعه بالمتنبى أنه كان إذا ذكر الشعراء يقول : قال أبو نواس كذا ، قال البحترى ، قال أبو تمام ، فإذا أراد المتنبى قال : قال الشاعر . فقيل له يوماً : لقد أسرفت فى وصفه ، فقال : أليس هو القائل :

بليت بِلَى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه

كم يقف الشحيح على خاتمه ؟ يقف عليه أربعين يوما . فقيل له : ومن أين علمت ذلك ؟ قال : سليمان بن داود عليهما السلام وقف على طلب الخاتم أربعين يوما ، فقيل له : ومن أين علمت أنه بخيل ؟ قال : من قوله تعالى : وهَبْ لى مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعدى ، وما كان عليه أن يهب الله لعباده أضعاف ملكه !

ولما بلغ أبا العلاء وفاة أبى أحمد الطاهر أبى الشريفين الرضى والمرتضى سنة ٤٠٣ ، رثاه وهو بالمعرّة بقصيدة فائية طويلة ، أجاد فيها كل الإجادة ، وأنفذها إليهما ، مطلعها :

أَوْدَى فليت الحادثاتِ كفافِ مالُ المُسِيفِ وعَنْبَرُ المُسْتَافِ

ومن غريب قوله فيها يخاطب الغرابَ :

لا خاب سَعْيُكَ من خُفَافِ أسحمٍ كسُحَيْمِ الأَسَدِىّ أو كخُفَافِ

مِنْ شاعرٍ للبين قال قصيدة يرثى الشريف على رَوِىّ القاف

بنيت على الإيطاء سالمة من الـ ـإقواء والإكفاء والإصراف

---

(١) الرواجب : واحدتها راجبة ، وهى مفاصل الأصابع .

الخُفَاف : الخفيف ، وسُحَيْم : عبد بنى الحَسحاس ، كان أسود ؛ وأراد بِخُفَاف : خُفَافَ بن نُدْبَة[1] أحد غربان العرب وشعرائها ، يعنى كأن هذا الغراب شاعر أسود كهذين الشاعرين ، ينعى لنا الشريف بنعيبه ، ويرثيه بقصيدة قافيّة ؛ لأنه يقول فى نعيبه : غاقِ غاقِ . وهذه القصيدة بنيت على الإيطاء ؛ لأنه يردد هذه الكلمة فى قوافيها ، إلا أنها سالمة من الإقواء ، وهو الاختلاف بين القوافى بالرفع والجر ؛ ومن الإكفاء ، وهو المخالفة بينها بالحروف ؛ ومن الإصراف ، وهو الإقواء بالنصب .

وممن صحب أبا العلاء وأخذ عنه وهو ببغداد القاضى أبو القاسم على بن المحسن التنوخى المتقدم ذكره ، وكانت بينهما رابطة اتحاد . وحمل إليه مرة جزءاً من أشعار تنوخ فى الجاهلية ، مما كان جمعه والده أبو على المحسن ، فلما تعجل أبو العلاء الرحيل عن بغداد تركه عند أبى أحمد عبد السلام ، وسأله ردّه إلى أبى القاسم ، وسار عن بغداد ، نخشى أن يكون أغفله ، فكتب يخاطب أبا القاسم بقصيدة ضمنها أغراضاً ، يقول فيها :

أهدى السلام إلى عبد السلام فما ... يزال قلبى إليه الدهرَ ملفوتا
سألته قبل يوم السير مَبْعَثَهُ ... إليك ديوان تَيْم اللات مالِيتَا[2]
هذا لتعلم أنّى ما نهضت إلى ... قضاء حجّ فأغفلت المواقيتا

وروى ابن خلكان وابن الوردى فى تاريخيهما ، نقلا عن كتاب للحافظ أبى طاهر السِّلَفى ، وضعه فى أخبار أبى العلاء ، قال فيه مسنداً عن القاضى أبى الطيب الطبرى : كتبت إلى أبى العلاء المعرى حين وَافَى بغداد ، وقد كان نزل فى سُوَيْقَةِ غالب :

---

(١) ندبة بفتح أوله أو ضمه : أم خفاف ، وهو أحد من نسب إلى أمه من الشعراء .
(٢) أى ما نقص .

وما ذات دَرٍّ لا يَحِلُّ لحالب تَنَاوُلُه واللحم منها مُحَلَّلُ
لمن شاء فى الحالين حيًّا ومَيِّتًا ومَن رام شرب الدَّرِّ فهو مُضَلَّلُ
إذا طَعَنَتْ فى السن فاللحم طيّب وآكِلُهُ عند الجميع مُعَقَّل
وخرفانها للأكل فيها كزازة[1] فما لحصيف الرأى فيهن مَأْكَلُ
وما يجتنى معناه إلاّ مبرّز عليم بأسرار القلوب مُحَصَّلُ

فاجابنى ، وأملى على الرسول فى الحال:

جوابان عن هذا السؤال كلاهما صوابٌ وبعض القائلين مضلّل
فمن ظنه كَرْماً فليس بكاذبٍ وَمَنْ ظنّه نَخْلا فليس يُجَهَّلُ
لحومهما الأعناب والرُّطَبُ الذى هو الحِلُّ والدَّرُّ الرحيق المُسَلْسَلُ
ولكن ثمار النخل وهى غضيضة[2] تَمَرٌ[3] وغَضُّ الكَرْم يُجْنى ويُؤْكل
يكلفنى القاضى الجليل مسائلا هى النجم قدراً بل أعز وأطول
ولو لم أُجِبْ عنها لكنت بجهلها جديراً ولكن من يَوَدُّك يُقْبِل

قال القاضى أبو الطيب : فأجبته عنه ، وقلت :

أثار ضميرى من يعزّ نظيره من الناس طُرًّا سابغ[4] الفضل مكمل
وَمَنْ قلبُهُ كُتْبُ العلوم بأسرها وخاطره فى حدة النار مُشْعَلُ
تساوى له سرّ المعانى وجهرها ومُعْضِلُهَا باد لديه مُفَصَّلُ
ولما أثار الحُبُّ قاد[5] منيعه أسيراً بأنواع البيان يُكَبَّلُ

---

(١) الكزازة : اليبس والانقباض .
(٢) رواية ابن الوردى : رطيبة .
(٣) مر يمر بالفتح والضم : ضد يحلو .
(٤) رواية ابن الوردى : سابق .
(٥) رواية ابن الوردى : ولما أثار الحَبْءَ فار معينه .

وقرّبه من كل فهم بكشفه ... وإيضاحه حتى رآه المغفلُ
وأعجب منه نظمه الدُّرَّ مسرعا ... ومرتجلا من غير ما يَتَمَهَّل
فيَخْرُجُ من بحر ويسمو مكانه ... جلالا إلى حيث الكواكب تنزل
فهَنَّأه الله الكريم بفضله ... محاسنَه والعُمْرُ فيها مُطَوَّل

فأملى أبو العلاء على الرسول مرتجلا :

ألَا أيها القاضى الذى بدهائه ... سيوف على أهل الخلاف تُسَلُّ
فؤادك معمور من العلم آهِلٌ ... وجَدُّكَ فى كل المسائل مُقْبِل
فإن كنتَ بين الناس غير مُمَوَّلٍ ... فأنت من الفهم المصون ممَوّل
إذا أنت خاطبت الخصوم مجادلا ... فأنت وهم مثل الحمائم أجْدَل
كأنك مِن فى الشافعىّ مُخَاطِبٌ ... ومن قلبه تُمْلِى فما تتمهّل
وكيف يُرَى علم ابن إدريس دارساً ... وأنت بإيضاح الهدى متكفل
تفضَّلت حتى ضاق ذَرْعى بشكر ما ... فعلتَ وكفّى عن جوابك أجمل
لأنك فى كنه الثريّا فصاحة ... وأعْلَى، ومن يبغى مكانك أسفل
فعذرِىَ فى أنى أجبتك واثقاً ... بفضلك والإنسان يسهو ويذهل
وأخطأت فى إنفاذ رقعتك التى ... هى المجد لى منها أخيرٌ وأَوْل
ولكن عدانى أن أروم احتفاظها ... رسولك وهو الفاضل المتفضّل
ومن حقها أن يصبح المسك عاطرا ... بها[1] وهى فى أعلى المواضع تُجْعَل
فمن كان فى أشعاره متمثّلا ... فأنتَ امرؤ فى العلم والشعر أمْثَل
تجملتِ الدنيا بأنك فوقها ... ومثلُك حَقًّا مَنْ به تتجَمَّل

والقاضى أبو الطيب المذكور كان أديباً ورعا ، عارفاً بأصول الفقه وفروعه ،

(١) رواه ابن الوردى : غامرا لها .

صنف فى الأصول ومذهب الشافعى والخلاف والجدل — كتباً كثيرة . وكان يقول الشعر على طريقة الفقهاء ، وولى القضاء بربع الكرخ ببغداد ، ولم يزل عليه إلى أن مات سنة خمسين وأربعمائة ، بعد ما عاش مائة سنة وسنتين ، لم يختل عقله ، ولا تغير فهمه ، يفتى ويستدرك على الفقهاء الخطأ ، ويقضى ، ويحضر المواكب فى دار الخلافة . رحمه الله تعالى .

ومن أخبار أبى العلاء قصته مع أسد الدولة صالح بن مرداس صاحب حلب ، وقبوله شفاعته فى أهل معرة النعمان بعد أن كاد يبطش بهم سنة ٤١٧ . والسبب فى ذلك أن امرأة صاحت يوم الجمعة بجامع المعرة ، وذكرت أن صاحب الماخور أراد اغتصابها ، فنفر كل من فى الجامع وهدموا الماخور ، وأخذوا خشبه ونهبوه ، وكان الأمير أسد الدولة فى نواحى صيدا ، فوصل المعرة ، وخيّم بظاهرها ، واعتقل من أعيانها سبعين رجلا برأى وزيره تادرس بن الحسن الأستاذ ، وأوهمه أن فى ذلك إقامة للهيبة . فشق على المسلمين هذا الأمر ، حتى دعوا لهؤلاء المعتقلين على منابر آمد وَمَيَّارِقِينَ . وقطع تادرس عليهم ألف دينار ، ففزع أهل المعرة إلى أبى العلاء ، وسألوه تلافى الأمر بالخروج إلى الأمير ، والتوسط لهم عنده . فخرج من أحد أبواب المدينة ، ويده فى يد قائده ، وأبصره صالح ، فرأى شيخاً قصيراً يقوده رجل ، فقال : هذا أبو العلاء ، جيئونى به . فلما مثل بين يديه سَلَّم عليه ، ثم قال : « الأمير أطال الله بقاءه كالنهار الماتع ، قاظ وسطه وطاب إبراده ، أو كالسيف القاطع ، لان متنه وخَشُن حدّاه ، «خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعرِض عن الجاهلين » . فقال صالح : « لا تَثْرِيبَ عليكم اليومَ ، قد وهبت لَكَ المَعَرَّةَ وأهلها » وأمر بتقويض الخيام ورحل . فرجع أبو العلاء وهو يقول :

نجّى المَعَرَّةَ من بَرَائِنِ صالح رب يعافى كلّ داء معضل

ما كان لى فيها جناح بعوضة ألله ألحفهم جناح تفضـــل

ورواية اللزوميات فى البيت الأول :

نجى المعاشر من براثن صالح ربٌّ يُفرّجُ كُلَّ أمر مُعْضِلِ

وفيها أيضاً : ألبسهم ، بدل : ألحفهم . ولم يعلم أبو العلاء أن المال قد قطع عليهم ، وإلا كان قد سأل فيه أيضاً . وفى هذه القصة يقول وضمنها لزومياته :

تَغَيَّبْتُ فى منزل برهـــةً سَتيرَ العيوب فقيد الحَسَدْ

فلمّا مضى العُمْرُ إلاّ الأقلّ وحُمّ لروحى فِرَاقُ الجَسَدْ

بَعِثْتُ شـفيعاً إلى صالح وذاك من القوم رأى فَسَدْ

فيسمع مِنّى سجعَ الحمامِ وأسمع منه زَئِيرَ الأَسَدْ

فلا يُعْجِبَنّى هـذا التّفَاقُ فكم نَفَقَتْ مِحْنةٌ ما كَسَدْ

وصالح هذا هو أسد الدولة أبو على صالح بن مرداس الكِلاَبِىّ أول ملوك بنى مرداس بحلب ، كان من عرب البادية ، وكانت له عشيرة وشوكة ، فقصد مدينة حلب وانتزعها من مرتضى الدولة بن لؤلؤ ، نائب الظاهر بن الحاكم الفاطمى خليفة مصر ، وتملكها سنة ٤١٧ . ثم جهز الظاهر الجيوش ووجهها إليه ، وجرت مقتلة انجلت عن قتل صالح سنة ٤٢٠ ، وقيل سنة ٤١٩ .

وهو الذى عناه أبو العلاء بقوله فى لزومياته :

أرى حَلَبًا حازها صـــالح وجال سِنَانٌ عَلَى جِلّقَا

وحَسّانُ فى سَلَفَىْ طيِّئ يصرف من عِزِّهِ أَبْلَقَا

وذكر السيوطى فى بغية الوعاة فى ترجمة نصر بن صدقة القابسى النحوى ، أنه كان ممن يعانى الأدب ، فقدم مصر وأخذ عن علمائها ، ثم توجه إلى المعرة فلازم أبا العلاء ، وأخذ عنه ديوانه سقط الزند ، وكتب منه نسخة جيدة ، ورجع

إلى مصر ، فقدمها للحاكم وقرأها عليه ، فأعجبه نظمه ، وأرسل إلى عزيز الدولة الوالى بحلب ، أن يحمله إلى مصر ، فاعتذر فكفّ عنه . هذا ما ذكره السيوطى . وفى مقدمة رسالة المعرى تسمى بالفلّاحية : أن القابسىّ المذكور لما رجع إلى مصر بنسخته سقط الزند ، أهداها للوزير أبى نصر صدقة بن يوسف الفلاحى ، فأعجب بها ، واستدعى كاتب الديوان ، وأمره أن يكتب إلى عزيز الدولة متولى حلب وأعمالها فى حمل أبى العلاء إلى مصر ، ليبنى له دار علم ، وسمح بخراج معرة النعمان له فى حياته و بعده ، فوصلت الأوامر إلى ديوان الشام بكتب السجل ، فكُتب ، وجهز على البريد . فلما وقف عليه عزيز الدولة نهض للوقت ، حتى دخل معرة النعمان ، وقرأ السجل على أبى العلاء ، فقال : أمهلنى حتى أكتب جواب السجل إلى مجلس الوزارة ، فلعل العفو يسامحنى بالمقام فى بلدى ؛ إذ لا يمكننى الخروج منه . فأمهله الأمير ، فأحضر الكاتب للوقت ، وأملى عليه هذه الرسالة يعتذر فيها عن عدم الرحيل بعجزه عنه . والوزير الفلاحى المذكور وُزِّرَ للمستنصر سنة ٤٣٦ وعزل سنة ٤٣٩ . ولم تسبق له وزارة مدة الحاكم بأمر الله ، حتى يمكن الجمع بين الروايتين . وقد تقدم أن المستنصر بذل لأبى العلاء ما يبيت مال المعرة من الحلال ، فلم يقبله . فلعل ذلك كان بسعى هذا الوزير ، وفيه مايرجح الرواية الثانية . إلا أن يكون مراد السيوطى مطلق حاكم بمصر ، لا الحاكم بأمر الله على الخصوص . وكان هذا الوزير فى أول أمره يهوديا ، ثم أسلم . وفيه يقول الحسن بن خاقان الشاعر المصرى :

حجاب وإعجاب وفرط تصلف ومدّ يد نحو العلا بتكلف

فلو كان هذا من وراء كفاية عذرنا ولكن من وراء تخلّف

وكان معه أبو سعد التسترى اليهودى يدبر الدولة له ، فقال بعض الشعراء :

يهود هـذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقـد ملـكوا
العز فيهم والمـال عنـدهم ومنهم المســـتشار والملك
يا أهل مصر إنى نصحت لـكم تهوّدوا قـد تهوّد الفلك

وممن ارتبط مع أبى العلاء برابطة الود ، وجمعته به آصرة الأدب ؛ الوزير أبو القاسم الحسين بن على العالم الأديب المشهور بالوزير المغربى ، صاحب مختصر إصلاح المنطق ، وأدب الخواص ، والمأثور فى ملح الخدور ، وكتاب الإيناس ، والديوان الشعر . وهو الذى كتب له أبو العلاء رسالته المسماة بالمَنِيح ، ورسائل أخرى . ولما فرغ من تأليف مختصر إصلاح المنطق لابن السكيت أنفذ إلى أبى العلاء نسخة منه ، فقرظها برسالة طويلة سماها بالإغريضية ، أثنى عليه فيها ثناء جمًّا ، ووصف المختصر ، وبالغ فى مدحه . ووقفت فى رسائل لأبى العلاء مخطوطة على كتاب أرسله له هذا الوزير ، يتشوق إليه وإلى أخيه ، ويشتكى من الدهر وصروفه ، ويسأل الله أن يجمعه بهما ، وضمنه كثيراً من شعره فى هذه الأغراض . ولولا خوف الإطالة لأثبته هنا .

وكان الوزير المذكور من الدهاة العارفين ، محبا للفتن ، مثيراً للقلاقل ، قتل الحاكم بأمر الله أباه وعمه وأخويه ، فهرب إلى الرملة ، ثم انتقل إلى الحجاز ، وهو يفسد نيات الولاة على الحاكم حتى أقلقه . ودخل العراق فاتهمه القادر العباسى بالسعى فى إفساد الدولة العباسية ، فلم يزل منتقلا فى البلاد حتى مات بِمَيَّافَارِقِينَ سنة ٤١٨ على الأصح . ونقل إلى الكوفة بوصية منه ، ودفن فى تربة مجاورة لمشهد الإمام كرم الله وجهه ؛ وأوصى أن يكتب على قبره :

كنت فى سَفْرَةِ الغَوَايَة والجهـ ـل مقيما فخان منى قدوم
تبت من كل مأثم فعسى يُمْـ ـحَى بهذا الحديث ذاك القديم

بعد خمس وأربعـــين لقَدْ ما طَلتُ إلاّ أن الغريم كريم

ورثاه أبو العلاء بأبيات أثبتها فى لزومياته ، وهى :

ليس يبقى الضَّرْبُ[١] الطويل على الأرض ولا ذو العَبَالة[٢] الدِّرْحَايَهْ

يا أبا القاسم الوزيرَ ترحّلْـ تَ وخلّفتنى ثِفَالَ[٣] رَحَايَهْ

وتركت الكتب الثمينة للنا س وما رحتَ عنهمُ بِسِحَايَهْ[٤]

ليتنى كنتُ قبل أن تشرب المو تَ أصيلا شربتُه بضُحَايَهْ

إن نَحَتْكَ المنونُ قبلى ، فإنى مُنْتَحَاهَا وإنها مُنْتَحَايَهْ

أمُّ دَفْرٍ تقول بعـــدك للذا ئق لا طعم لى فأين فَحَايَهْ[٥]

إنْ يَخُطَّ الذنب اليسير حفيظا كَ فكم من فضيلة مَحَّايَهْ

وكان ابن القارح صاحب الرسالة المشهورة المعرى يؤدب الوزير المغربى فى صباه ، ثم صار يذمُّه ويعدد معايبه ، حتى قال فى هجوه :

لُقِّبْتَ بالكامل سَتْراً على نقصك كالبانى على الخُصّ

فصرت كالكُنْفِ إذا شيّدت بُيِّض أعلاهن بالجِصّ

يا عُرَّةَ الدنيا بلا غُرَّةٍ ويا طُوَيْسَ[٦] الشؤم والحرص

قتلتَ أهليك وأنهبت بيـ ـت الله بالموصل تستعصى

---

(١) الضرب : الخفيف اللحم .

(٢) ذو العبالة : الغليظ ، والدرحاية : القصير .

(٣) الثفال بالكسر : الجلد الذى يوضع تحت الرحى .

(٤) سحاية القرطاس : ما سحى منه ، أى أخذ .

(٥) الفحا ويكسر : البزر : وفحى القدر : كثر أبازيره .

(٦) طويس : أول من غنى فى الإسلام يضرب به المثل فى الشؤم ؛ لأنه ولد ليلة مات رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وفطم يوم مات أبو بكر ، وبلغ يوم مات عمر ، وتزوج يوم قتل عثمان ، وولد له يوم قتل على .

و بلغ أبا العلاء كلامه فيه فامتعض وتألم . فلما كتب ابن القارح رسالته قال فيها فى هذا الخصوص مخاطباً أبا العلاء : « بلغنى عن مولاى الشيخ — أدام الله تأييده — أنه قال وقد ذُكِرْتُ له : أعرفه خبزاً ، هوالذى هجا أبا القاسم الحسين ابن على المغربى . فذلك منه أدام الله عزه رائع لى ، خوفاً أن يستشرّ طبعى ، وأن يتصورنى بصورة من يضع الكفر موضع الشكر ، وهو بتعريف التنكير أنفع لى عنده ، لجلالة قدره ودينه ونسكه . وأنا أُطلعه طِلْعَه ، ليعرف خَفْضه ورَفعه ، وفُرادَاه وجمعه » . ثم ساق بعد ذلك نوادر عن هذا الوزير فى تهوره ومحبته للفتن ، ونقضه للعهود ، فأجابه أبو العلاء فى رسالة الغفران بأن هذا الصديق قد مات ، وأولى بمن يغفر الذنب للحى أن يغفره له وهو ميت .

وكان أبو الخطاب محمد بن على بن محمد بن إبراهيم الجَبَلِى[1] شاعراً ، وكان بينه و بين أبى العلاء المعرّى مشاعرة ، وفيه قال أبو العلاء قصيدته :

غير مجدٍ فى ملّتى واعتقادى نوحُ باكٍ ولا ترنُّمُ شادِ

ومات أبو الخطّاب فى ذى القعدة سنة ٤٣٩ . كذا ذكر ياقوت فى معجم البلدان .

(١) الجبلى : نسبة إلى جبل بفتح الجيم وتشديد الباء وضمها : بليدة بين النعمانية وواسط ، كما فى ياقوت .